

## الفصل الثاني

- أخلاق الفرد نحو نفسه .
- أخلاق الفرد نحو مجتمعه .
- صلة الزوجية .
- الأسرة : صلة الأولاد بالوالدين .
- الأسرة : صلة الأقارب .
- الجماعة وتنظيم علاقة الفرد فيها .
- مبادئ إنسانية من حياة الرسول -
- التضافر والتعاون .
- التواد .
- رعاية الجار .
- المسروعة .
- انكأر الذات .
- العزة والكرامة .
- فضيلة الصبر .
- الصبر عند الشدة .
- الصراحة والصدق .

obeikandi.com

## أخلاق الفرد نحو نفسه

أرد أن أعرض في هذه الصفائف للأخلاق القرآنية في اتصالها بالفرد ، والأسرة ، والأمة ، والعالم الإنساني كله ، بأن أوضح النظرة التي قامت عليها أخلاق القرآن إلى هذه الوحدات ، وكذا الغاية التي سمت إلى تحقيقها في دائرة كل وحدة منها .

وأخذاً بالمنهج الذي أجمته الآن في عرض أخلاق القرآن الكريم نتحدث هنا عن نظرة القرآن إلى الإنسان كفرد ، ثم عن الغاية التي قصد إلى تحقيقها في جانبه من وصاياه الأخلاقية :

١ - يقول جل شأنه في وصف الإنسان ، وفي تحديد نظرته إلى طبيعته الإنسانية : « وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ ، وَالْأَفْئِدَةَ ، أَعْلَمُكُمْ تَشْكُرُونَ <sup>(١)</sup> » . ويقول في آية أخرى : « اقْرَأْ بِأَمْرِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ . كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ . أَن رَأَاهُ اسْتَغْنَى <sup>(٢)</sup> » . فذكر الله سبحانه في الآيتين الكريميتين معاً ثلاث حقائق : الحقيقة الأولى :

أن الإنسان يخلق من غير سابق توجيه معين يسير به في هذه الحياة . الحقيقة الثانية : أنه زود بمصدرين المعرفة : المصدر الأول ما في طبيعته من حواس في مقدمتها السمع والبصر ، وما في نفسه من فؤاد وبصيرة وحكمة ، وهو المصدر الذي أشارت إليه الآية الأولى . والمصدر الثاني هداية الله وتوجيهه في كتابه المنزل ، وهو ما أشارت إليه الآية الثانية وصرحت به أيضاً أمثال هذه

الآية: «يأيتها الناسُ قد جاءَ تَسْكُمُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ، وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ»<sup>(١)</sup> .

الحقيقة الثالثة - أنه مع وجود هذين المصدرين تزويد الإنسان بالمعرفة والتوجيه السليم في الحياة - الإشارة إلى أن الإنسان قد يميل عن اتباعهما وبذا يقل شعوره بوجودها في دائرة حياته ، ويبعدهما لذلك عن مجال النعم التي يجب أن يشكر عليها الله . ويشير إلى هذا التعقيب في الآية الأولى ، قول المولى سبحانه «لعلكم تشكرون» . . وفي الآية الثانية : « كلا إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى » . فقلة شكر الإنسان المولى جل وعز أو طغيان الإنسان ، ونسيانه فضل النعم عليه كلية لا يكون إلا من ميل ، أو انحراف عن اتباع الهدى والرشد في التوجيه المنبعث من عقل الإنسان وحواسه وكتاب الله المنزل .

والسبب في ميل الإنسان أو انحرافه عن هذين المصدرين في التوجيه أن الحياة يدور فيها أمران متقابلان : زخارف الدنيا ومفاتها ، أو القيم الأساسية الخالدة في الحياة فيها . والاستمتاع بزخارف الدنيا ، وثباتها استمتاع عاجل ، ولكنه مؤقت ، والاستمتاع بالقيم الحقيقية استمتاع مؤجل ، ولكنه دائم . فبعض الناس يندبه الأمر العاجل ، وهو بطبيعته سهل الاقتراب . والبعض الآخر منهم يؤثر الآجل من الأمور ويتحمل مشقته . وهو الذي يسلك في عداد المكافحين الصابرين في كفاحهم . ويصور أمر الفريقين قول الله تعالى : «فَفَخَّرَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ . قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ ، إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ . وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ : وَيَلَيْسُ لَكُمْ ، ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ مِنْ آَمَنَ ، وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يَتَّبِعْهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ»<sup>(٢)</sup> .

ولكن مع وجود هذا المغرى الفاتن في الحياة الذي يجذب إليه فريقاً من

الناس طواعية وفي يسر - فإن الله قد كفل الوقاية من فتنه ، وجعل سبيل ذلك تذكرة سبحانه والالتجاء إلى هدايته . يقول جل شأنه : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ ، وَنَعَلْنَا مَا تُوسَّوسُ بِهِ نَفْسَهُ ، وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » . ومعنى ذلك أن الله ليس بعيداً عن الإنسان إذا ما التجأ إليه وطلب نصرته عند خشيته الأثر بزخرف الحياة ، وعندما تتردد النفس في الإقدام على الافتتان بها .

\* \* \*

خلق الله الإنسان إذن غير حامل معه توجيهاً سابقاً ومعرفة خاصة مصاحبة له ، ولكنه زوده بمصدرين للمعرفة يستطيع أن يسير في ضوءهما في حياته الخاصة والعامة ، على هدى وبصيرة : مصدر ركب في طبيعته وهو عقله أو فؤاده وحواسه ، ومصدر آخر أوحى به رب الخلق أجمع لهداية الإنسان في كونه ، وهو كتابه . وهداية الله للإنسان في كونه بالنسبة للفرد يجب أن تكون لصالحه . لأن الله غنى عن العالمين . وصالح الإنسان لا يتحقق في انزلافه في الحياة ليستمتع بها ما وسعه الاستمتاع ، ولا بأنه يراه وسيلة من وسائل تحقيق التمتع . لأن تلك غاية حيرانية ، لا تجعل الإنسان يعيش كإنسان ، وأن تكون لحياته طابع الإنسانية . وفي آداب القرآن ، وفيما رسمه للفرد كطريق لتصرفه الفردي كي يحقق به صالحه الخاص ، نجد أن هذه الآداب تتركز في أربع جوانب وهي كل ما يتصور في دائرة الإنسان كفرد .

الجانب الأول : فيما يتصل بكلام الإنسان وتعبيره ومنطقه . ففي قوله تعالى : « وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ يَدَيْهِمْ ، إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا<sup>(١)</sup> » يحثه على التعبير بالحسن . ورتب عليه لو أخذ

الإنسان به نفسه تفادى النزاع والخصومة . وفي قوله : « وإذا قاتم فاعدوا ولو كان ذا قربى »<sup>(١)</sup> .. أوجب عليه الاتزان في القول ، والعدل في المنطق بما بين الناس عند تحديد أمورهم . وأوجه مهما كانت الاوضاع التي من شأنها أن تميل بالإنسان وتتحرف به عن العدل والاتزان : « ولو كان ذا قربى » .

الجانب الثاني : يتعلق بسلوك الإنسان ، وقد رغب إليه أن يسكون سلوكه مهذباً وهو السلوك لذى يبعد صاحبه عن إيذاء غيره ، وإيذاء نفسه . يقول الله جل شأنه « ولا تُصعِرْ خَدَكَ لِلنَّاسِ ، وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحًا »<sup>(٢)</sup> .

ويقول : « وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ ، وَأَعْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ، إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ »<sup>(٣)</sup> ..

ويقول : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا »<sup>(٤)</sup> ..

ويقول : « فَإِنْ مِنْ بَعْضِكُمْ بَعْضًا فليُؤَدِّ الَّذِي أُوْتِيَ مِنْ أَمَانَتِهِ »<sup>(٥)</sup> ..

ويقول : « وَلَا تَسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ »<sup>(٦)</sup> ..

ويقول : « وَلَنْ صَبِرَ وَغَفَرَ ، إِنْ دَلَّكَ لِمَنْ عَزَمَ الْأُمُورَ »<sup>(٧)</sup> .

والجانب الثالث : ما يرتبط باطمئنان نفس الإنسان ، واستقراره في الحياة وذلك بأن يذكر الله ، على أنه وحده الذي يركن إليه ، وأنه وحده الذي يستطيع دفع الملمات ، وأنه وحده الذي لا يخلف وعده فيما وعد به المؤمنين الصابرين . يقول جل شأنه : « الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ »<sup>(٨)</sup> .

(٢) لقمان : ١٨

(٤) المجادلة : ١١

(٦) البقرة : ٢٣٧

(٨) الرعد : ٢٨

(١) الأنعام : ١٥٢

(٣) لقمان : ١٩

(٥) البقرة : ٢٨٣

(٧) الشورى : ٤٣

الجانب الرابع : فيما يتصل بموقف الإنسان الفرد من أحداث الحياة في جماعته التي يتوقف عليها تحديد مصيرها . فلم يرض عن أن يكون . موقف الإنسان منها موقف المستغل ، والمتردد ، وموقف النفعي الأناني ، يخذل جماعته وأمتة في سبيل نفعه وأنانيته ، ولا يحقق في الحياة بعمله كفرد إلا ما يعود عليه وحده . يقول الله سبحانه وتعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ أَنْ لِيَبْطِئْنَ : فَإِنْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ ، قَالَ : قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ ، إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا . وَلَئِنْ أَصَابَكُمْ فَضْلٌ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ : - كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ - يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا » (١) .

وصاحب هذا الموقف في القرآن ليس ممن يلبون النداء لأحداث الجماعة التي يتوقف عليها مصيرها ، نصرأ أو هزيمة .. سعادة أو شقاء .. ليس ممن أطاعوا الله والرسول على نحو ما يقول الله تعالى : « وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ ، وَالصَّالِحِينَ ، وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا » (٢) .

\* \* \*

والقرآن الكريم في وصاياہ الأخلاقية للفرد نحو نفسه يعني أن يكون إنساناً مهذباً في قوله .. مطعثن النفس والبال في حياته .. إيجابياً في الحياة بعمله ، ولكن بحيث لا يقصر إيجابيته على منفعته وحده . والمؤمن بالإسلام هو ذلك الإنسان .

(٢) النساء : ٦٩

(١) النساء : ٧٣

## أخلاق الفرد نحو مجتمعه

الإنسان كائن من كائنات هذه الحياة الدنيا ، ويعيش في هذه الحياة نفسها ، ويسعى فيها ، ويرتبط بما فيها مما من شأنه أن يكون له تأثير عليه ، وبحيث لا يستطيع هو أن ينفك عنه انفكاكاً تاماً .

وكائن حاله هذه الحال ليس من المستطاع أن يكلف تسكيناً يجازى عليه باعتزال هذه الحياة ، فيثاب باعتزالها تماماً ، ويماقب على تعلقه بها أدنى تعلق . والمستطاع إذن أن يباح له تحصيل ما فيها ، حتى يتنفس في جو غير مصطنع ، ويعيش في أسلوب ينسجم مع طبيعته . والمنطق إذن أن يستمتع بالحياة الدنيا وزينتها ومفاخرها من مال وولد ، وجاء .

ولكنه كإنسان أيضاً له كذلك من طبيعته لون آخر من الحياة يميزه عن حياة الحيوان والكائنات الأخرى التي تشاركه في النمو والحركة ، ويتميزه عنها بالمنطق والإدراك . هذا اللون من الحياة هو حياة الجماعة ، أو الشعور النفسى بالمشاركة وتبادل الإحساس بالوجود المشترك مع غيره من نظرائه في الطبيعة والتكوين ، وهم بنو الإنسان .

أمران طبيعيان للإنسان ، تدفع إليهما طبيعته ووجوده الخاص وهما :  
أولاً - أن يعيش في الحياة ليحفظ لنفسه البقاء . وثانياً - أن يشارك غيره من نظرائه فيما يوجد فيها من مقومات العيش ، وفيما يتخذ من وسائل لتحصيله .

وارتباطه بهذه الحياة إلى هذا الحد يدفعه إلى تحصيل أسباب العيش فيها . وشعوره الطبيعى بمشاركة غيره له بدفعه إلى محاولة الملاءمة بين هذين الجانبين الطبيعيين فيه :  
بين أن يعيش ليحفظ ذاته .. وبين اضطراره لأن يشاركه غيره في مقومات العيش

وحدها، وعن طريقها يخضع الضعيف للقوى . وعندئذ يمد الضعيف سامة ومتممة من  
متع الحياة للقوى .

وكثيراً ما تكون القوة المادية: قوة الأجسام أو قوة العصبية ، أو وسائل  
الدوان — هي وسيلة الملاءمة بين رغبة الإنسان في الحياة ، واضطراره لأن  
يشاركه غيره في الوجود .

\* \* \*

والقرآن الكريم فيما خطه من منهج أخلاقي للفرد نحو مجتمعه اعتبر الإنسان  
يسيطر عليه هذان الجانبان ، ويقومان طبيعته الإنسانية . وأن في الإنسان ما يدفعه  
إلى أن يعيش ويحافظ على كيانه وبقائه ، وأن فيه أيضاً ما يدفعه إلى الاتصال بغيره  
من نظرائه ، إما اتصال احتكاك ونفرة ، أو اتصال تعاون ، وسعى منتظم مشترك .

وما يوجد في أدب القرآن بالنسبة لأخلاق الفرد نحو مجتمعه — قام على هذا  
الاعتبار . وهدف إلى الملاءمة بين الجانبين في الإنسان ، دون أن يكون هناك  
تجديد للقوة المادية كوسيلة للملاءمة ودون أن تكون الصورة النهائية للملاءمة هي  
الاحتكاك والنفرة بين فرد وآخر أو بين أفراد وآخرين .

وهذا الطريق الذي رسمه القرآن للملاءمة الكريمة ، وهي الملاءمة المؤدية إلى  
التعاون والمشاركة ، المنبعثة عن رضا واقتناع — نرى أن الإسلام وجدها ضرورة  
واضحة لصالح الأفراد أنفسهم ، وفي صلاتهم بعضهم ببعض ، التي ينشأ عنها مجتمعاتهم  
وجماعاتهم . يقول الله تعالى :

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ،

ولا تنس نصيبك من الدنيا ،

وأحسن كما أحسن الله إليك ،

ولا تبغ الفساد في الأرض ، إن الله لا يحب المفسدين (١) » ..

فصح جل شأنه أن يقصد الإنسان إلى الدار الآخرة فيما يصيبه من نعم في هذه الحياة . وشرح ذلك بأن يكون تصرفه إزاء هذه النعم تصرفاً مزدوجاً :

أولاً : —

(أ) أن لا ينسى حق نفسه فيها ، فقال : « ولا تنس نصيبك من الدنيا » ..

وثانياً : —

(ب) أن لا ينسى حق غيره في جماعته ، وذلك بأن يحسن إليه من هذه النعم ، ثم مع ذلك بأن يحول دون أن تطغى عليه فيفسد في الأرض ويثير بسببها الشرور والآلام الإنسانية : « وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض » .  
وبتقرير القرآن حق الإنسان في الانتفاع بالدنيا ونعمها .. ثم بطالب أن يحسن إلى غيره في جماعته ، وبأن لا يتخذ من النعم التي حصلها وسيلة للإفساد في المجتمع في أية صورة من صور الإفساد — سيكون قد لامم بين ذات الإنسان كفرد ، وبين غيره كمجتمع .. وفي الوقت نفسه بنى هذه الملائمة على نظرة واقعية إلى الطبيعة الإنسانية وما تنطوى عليه من قوتين تدفمان الإنسان إلى سعيه ، دفناً قوياً ، وإن كان هذا الدفع غير متكافئ في الحياة : قوة المحافظة على الذات والنفس ، وقوة الميل إلى مشاركة الغير .

وصورة الملائمة التي ينصح بها الإسلام بين هاتين القوتين في الإنسان تدل على حرص الإسلام على التعادل بين هاتين القوتين ، أو بالأحرى تدل على رغبته الأكيذة في عدم سيطرة جانب الذات على جانب المجتمع في طبيعه الإنسان .

وآيات كثيرة أخرى في القرآن الكريم تدل على أن حق الإنسان في الاستمتاع بهذه الحياة حق مشروع ، لا مفر من تقريره ، موحى من خصائص ذاته . على أن هذا الحق المشروع يجب أن لا يؤدي إلى إهمال حق مشروع آخر بحسب طبيعة الإنسان نفسه أيضاً ، وهو حق المجتمع أو حق الآخرين معه .

فإن ذلك قول الله جل شأنه : « فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى ، لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ <sup>(١)</sup> » وقوله : « الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً <sup>(٢)</sup> » .

فقد تضمن كل من الآيتين الكريمتين حق الأفراد في الاستمتاع بمتع هذه الحياة والسعي إلى تحصيلها . وذلك ما يشير إليه صدر كل آية منها وهو : « فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » في الآية الأولى .. « الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » في الآية الثانية . كما تضمنتا حق الجماعة في المشاركة في هذه النعم . وهذا ما يشير إليه الباقي فيهما . وهو : « وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى » في الآية الأولى .. « وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً » في الآية الثانية . إذ الثواب الأخرى عند الله مرتبط أيما ارتباط بأداء الفرد حق غيره ، وحق مجتمعه . لأن أداء مثل هذا الحق هو الذي يشق على النفس أداءه . لذلك طلب تهذيب النفس عن طريق القيادة: يهدف إلى تمكينها من أن تؤدي حق الغير أو حق المجتمع في سهولة ويسر ، وفي رضا واطمئنان . يقول جل شأنه :

« وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ، وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ، وَيَبْدُرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ، أُولَئِكَ لَمْ يُعْطِ الدَّارَ <sup>(٣)</sup> » .

والقرآن الكريم في تعبيره عن أداء حق الغير أو حق الجماعة: تارة يعبر عنه

(٢) الكهف : ٤٦

(١) الشورى : ٣٦

(٣) الرعد : ٢٢

بطلب الإحسان كما في قوله تعالى : « وأحسن كما أحسن الله إليك <sup>(١)</sup> » وتارة أخرى يعبر عنه في صورة أمر آخر كقوله : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً <sup>(٢)</sup> » .. وقوله « وأوفوا السكيل إذا كلمتم وزنوا باقسطين المستقيم ، ذلك خير وأحسن أولاً <sup>(٣)</sup> » .

وقد يعبر عن ذلك في صورة نهى ، كقوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتندبوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون <sup>(٤)</sup> » .

فهنا طاب من أفراد المؤمنين أن يفسحوا الطريق لتحقيق العدل . وذلك بأن يتجنبوا السعى الاستيلاء على حق الآخرين بطرق العرش والتدليس .

وإذا عبر القرآن فيما يتصل بأداء حقوق الغير في صورة الأمر والإيجاب كان مؤدى التعبير : أن الإتيان بالمطلوب فيه مصاحبة وإحسان للمجتمع ، وإذا عبر عنه في صورة النهى كان مؤدى التعبير : أن في إتيان المطلوب فساداً وفناء للمجتمع .

وأخلاق الفرد نحو مجتمعه في آداب القرآن الكريم ترسم الأفراد : كيف يلبون مطالبهم ورغباتهم في الحياة ، ثم مع ذلك يستطيعون أن يكونوا علاقات مع غيرهم في المجتمع ، لا اعوجاج فيها ، ولا زيف ، ولا خداع ، ولا اغتصاب . وإنما هي علاقات قائمة على الرضا والاطمئنان ، وفيها متعة تفوق المنفعة المستهلكة في الحياة تحقيقاً للرغبات الخاصة .

(٢) الاسراء : ٣٤

(٤) البقرة : ١٨٨

(١) القصص : ٧٧

(٣) الاسراء : ٣٥

## صلة الزوجية

تحدثنا عما رسمه القرآن الكريم لأخلاق الفرد نحو نفسه ، ونحو مجتمعه .  
وذكرنا أن ما رسمه القرآن في هذا الشأن تحديد للطريق الذى إذا سلكه الفرد  
كان إنساناً مهذباً : لانتحكم فيه طبيعته الفجة ، ولا تسيطر عليه روح الانفرادية .  
كما هو تحديد لطريق التعادل بين القوتين اللتين تدفعان الإنسان في تصرفه بنسبة  
غير متكافئة ، وهما قوتنا شهوته وعقله في حال سلوكه نحو نفسه .. وقوتنا محافظته  
على بقاء نفسه ومشاركته في مجتمعه .

والفرد الذى يطلب منه القرآن الكريم أن يكون ذلك الإنسان المهذب في  
السلوك الفردى والاجتماعى يستوى فيه الذكر والأنثى . يقول الله تعالى : « وَمَنْ  
يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ  
وَلَا يُظَلَّمُونَ شَيْئاً <sup>(١)</sup> » . فالآية تنص على أن جزاء العمل الصالح هو دخول  
الجنة ، وأن الذكر والأنثى في ذلك سواء .

وإذا تحدثنا الآن عن الأخلاق في أدب القرآن التى حدد بها علاقة الزوجين  
بعضهما ببعض فإننا فى واقع الأمر نضيف إلى أخلاق القرآن بالنسبة للفرد نحو نفسه  
ونحو مجتمعه : ما يوصى به الله جل شأنه فى كتابه العزيز بالنسبة للفرد كزوج  
وكزوجة . وإذن أخلاق الزوجية فى أدب القرآن الكريم هى :

١ - أخلاق الفرد نحو نفسه ،

٢ - وأخلاق الفرد نحو مجتمعه ،

٣ - وأخلاق الفرد كزوج .. أو كزوجة بالنسبة لطرفه ، الآخر .

فإذا طلب من كل من الزوجين كفرد أن يكون مهذباً في سلوكه نحو نفسه ونحو الآخر ، وأن لا يرجح شهادته على عقله ، ولا يحفظ بقاء ذاته على مجتمعه : فإنه يطلب منهما بصفة الزوجية خاصة أن تصير معاملة كل منهما للآخر .. إلى «الانسجام» حتى ليبدو أن تصرفهما معاً تصرف ناشئ عن فرد واحد ، ولغاية واحدة ، وفي طريق واحد .

وهذه درجة في السلوك والمعاملة فوق درجة سلوك الفرد نحو مجتمعه على العموم . يقول الله تعالى : « وَمِن آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ <sup>(١)</sup> » . ويقول : « هو الذي خلقكم من نفسٍ واحدة وجعلَ منها زوجاً ليسكنَ إليها <sup>(٢)</sup> » فجملت في هاتين الآيتين غاية الزواج : أن يسكن كل من الزوجين الآخر ويطمئن إليه ، ويستريح لوجوده . ولا تكون حالة السكنى هذه وحالة الاطمئنان والراحة في اجتماع فرد بآخر إلا إذا كان منسلك انسجام بينهما ، واقترب كل منهما نحو الآخر بسلوكه وطريقه في الحياة .

والطريق أولاً إلى هذا الانسجام : القصد في اختيار الزوج والزوجة إلى صفات المؤمن ، لا إلى صفات أخرى بمد ذلك . والمؤمن هو صاحب الخلق الكريم . قال الله تعالى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَاكُم <sup>(٣)</sup> » . والعامل في استمرار هذا الانسجام أمران :

الأمر الأول : أن يحفظ الرجل على المرأة حياتها وخفراها ، وبالتالي يحفظ

(٢) الاعراف : ١٨٩

(١) الروم : ٢٣

(٣) الحجرات : ١٣

عليها كرامتها كأنتى . ويتجلى ذلك فى أن يعبر لها عن تقديره إياها بمنحة يتقدم بها إليها حين الرغبة فى إتمام الزواج بها . وذلك هو ما يؤخذ من قوله تعالى : « وَأَتَوَاتَى النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ، فَإِنِ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُنَّ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا (١) » .

وتوكيداً لهذه المنحة وأن لها أثرها فى معنوية المرأة ثم فى منزلتها بعد ذلك لدى الزوج : جعل القرآن الكريم هذه النحلة - أى المنحة - حقاً للمرأة لا يسترد الرجل بعضها إلا عن طيب نفس ورضاء خالص منها .

هذه المنحة - وهى التى تعرف بالهر ، مهما اقتت قيمتها - تشعر الزوجة فى حياتها مع الزوج ، بأن الزوج هو الذى سعى إليها . ولذلك فهى موفورة الكرامة وليس لأنوثتها عندئذ دخل فى الغض من قيمتها كإنسان ، كما كان الحال قبل الإسلام . وهى تعيش الآن بعد ذلك مع الرجل فى وضع إنسانى متساو .

وإذا استقر شعور المساواة فى الإنسانية بين الزوجين سارت حياتهما إلى الانسجام ، وأمّرت المحبة وعدم الفرقة ، وتنج عنهما خلف صالح ترعاه محبة الاثنين ، ويعيش فى ظل وثامهما ووافقهما .

الأمر الثانى : فى الاحتفاظ بالانسجام بين الزوجين وإدامته : أن الحقوق والواجبات الزوجية متكافئة ومتعادلة بحسب طبيعة كل منهما . للزوج حقوق وواجبات .. وللزوجة حقوق وواجبات ، وكل واحد من النوعين من هذه الحقوق والواجبات متكافئ ومتعادل مع الآخر . ومعنى التكافؤ والتبادل هنا : أن الحياة الزوجية - كى تصل إلى غايتها وهى السكنى والاطمئنان والانسجام - لا بد من إسهام الرجل والمرأة فيها سواء ، ولا بد من إفادة كل منهما معاً بهذه العلاقة :

لا يضار الرجل بالملاقة الزوجية فيؤدى ما عليه دون مساهمة من المرأة فيها ،  
ولا تضار المرأة فتؤدى ما عليها دون مساهمة من الرجل فيها .

وهذا التكافؤ في الحقوق والواجبات هو الذى تشير إليه الآيتان الكریمتان :  
« الرَّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ  
أَمْوَالِهِمْ (١) .. » ولهنّ مثل الذى عليهنّ بالمعروفِ ، وللرجال عليهنّ  
درجة (٢) .

والمراد بالتأمّل فى الحقوق والواجبات هو التكافؤ والتعادل بينهما . وليس أن  
تكون كل حقوق الرجل وواجباته هى ذات حقوق المرأة وواجباتها . فالرجل عليه  
الإنتق مثلاً ، ودور المرأة فى ولدها ورعايته فى تنشئته وفى حملة .. وهكذا . أما درجة  
الرجل على النساء فى الآية الثانية ، وهى القوامه والقيادة فى الآية الأولى :  
فنسبتها إلى الرجل لآتخرج دوره فى الحياة الزوجية عن أن يكون فيها مسهماً  
لتعادل هذه الحياة وانسجامها . وهى لذلك ضرورة إنسانية لصالح الزوجة ، واىست  
مظهوراً على حسابها وفى سبيل تقويها .

ولم يقصد القرآن مطلقاً فيما أوصى به فى علاقة الزوجين ببعضهما ببعض : إلى هدم  
السكنى والاطمئنان التى جعلها غاية الزواج . وإلا كان غير منطقي مع مبادئه ،  
وكان غير مستقيم بعد ذلك : أن يحث على عدم الإضرار ، وعلى الصبر والنؤدة إذا  
ماتعرضت الحياة الزوجية لأزمة طارئة ، على نحو ما يوصى به فى قوله : « وعاشروهن  
بالمعروف ، فإن كرهتموهنّ فمسى أن تكرر هوأ شيئاً ، ويجعل الله فيه خيراً  
كثيراً (٣) » .. فطالبتة الرجال بعدم الإضرار فى العشرة ، وبالصبر عند الضيق  
بالزوجات : ينبىء عن حرصه على الرغبة فى بقاء السكنى والاطمئنان . وما أوصى

(٢) البقرة : ٢٢٨

(١) النساء : ٣٤

(٣) النساء : ١٩

به القرآن في سبيل الزواج وفي سبيل الحياة الزوجية: يقصد إلى حياة مثمرة ناجحة فيها اطمئنان وهدوء ، خالية من النفرة والنفور .. خالية من الكدر ، فضلا عن خلوها من الإضرار في المعاشرة .

والقرآن الكريم فيما يتصل بالزواج - وإن هدف إلى انسجام - لم يقصد إلى الغاء أحد الطرفين في صلة الزوجية . بل أبقى على فردية الاثنين ، ونظم الحياة بينهما ، بحيث تكون حياة مثمرة لصالحهما ولصالح الإنسانية . ومن أجل أنه أبقى على فردية الاثنين لا يسلب من أحدهما كفراد: حقوقه الشخصية بعد الزواج . ولهذا كان للفرد حقوق شخصية وحقوق زوجية في الزواج .. وعليه واجبات متنوعة كذلك . فالزوجة مع يسارها : نفقها في مال زوجها . ومع ارتباطها بزوجها في عقب الزوجية : فلها وحدها حق استثمار مالها بالطريقة التي تراها ، ولها كذلك حق احتفاظها في المقيدة بدينها الكتابي ، ولها حريتها في الرأي السياسي ، والتعبير عنه . ولكن كفالة هذه الحرية لها أو لزوجها في حدود عدم الإضرار بأحد الطرفين في الزوجية .

وأخلاق القرآن الكريم في العلاقات الزوجية : هي الدعوة إلى الانسجام بين الزوجين . وسبيل هذا الانسجام بينهما التكافؤ في الحقوق والواجبات في نوعها ، لا في شخصها وعينها .

أما الإضرار في المعاشرة فالنهي عنه ليس وقتاً على العلاقة الزوجية ، وإن كان هنا أشد وألزم ، لأنه يتنافى تماماً مع الزواج وهدفه .

ورسالة القرآن في علاقة الزوجين ببعضهما ببعض: هي إقامة التوازن والتعادل، على نحو رسالته في سلوك الفرد مع نفسه ونحو مجتمعه .

## الأسرة — صلة الأولاد بالوالدين

ونعرض للموضوع الثاني من موضوعات الأسرة، وهو صلة الأولاد بالوالدين في ضوء وصايا القرآن الكريم، وما حدده من منهج أخلاقي بقي هذه الصلة: الهزات والانحراف، ويكفل لها فوق ذلك أن تسير إلى غايتها المرجوة، وهي رضا الوالدين وامتعتها بأولادها من جانب، وحسن توجيه الأولاد نحو والديهم من جانب آخر.

والقرآن الكريم نظر إلى هذه الصلة في صورتها الواقعية.. نظر إليها على أنها صلة مرجوحة من جانب، وراجحة من جانب آخر: نظر إليها على أن الطرفين في علاقة أحدها بالآخر ليسا في درجة متساوية ولا في وضع واحد. فعلاقة الوالدين بأولادها أشد وأقوى من علاقة الأولاد بوالديهم. فالوالدان، حسب الفطرة السليمة، يتفوقان في ميلهما ومحبتها لأولادها على هؤلاء في ميلهم ومحبتهم لوالديهم.

والصلة بين الأولاد والوالدين في دائرة الميل والحب إذن صلة غير متكافئة وتعلق أحد الجانبين بالآخر تعلق غير متبادل.

يشير إلى هذا: أن القرآن في مخاطبته الآباء لم يذكر أولادهم — في آية من الآيات التي ذكرهم فيها — إلا على أنهم زينة ومنتعة في حياة والديهم. ومن أجل أنهم زينة أي متعة جعلهم بالنسبة لوالديهم: فتنة وموضع إغراء. ثم فيما ذكرهم لم يذكرهم إلا مقترنين بالمال، على أنه أيضاً زينة ومنتعة، وموضع فتنة وإغراء. بل أنه في بعض الآيات كاد يقصر الدنيا على الأولاد، والمال. يقول الله تعالى في سورة الكهف: «المالُ والبَنونُ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا».. ويقول في سورة التين:

« إنما أموالكم وأولادكم فتنة » .. ويقول في سورة الحديد: « اعلموا أنما الحياة الدنيا لب ، وهو ، وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الأموال والأولاد » .

ومؤدى التعبير عن الأولاد بأنهم زينة الحياة ، أو فتنة الحياة ، أو موضع التفاخر فيها — أن تعلق الوالدين بأولادهم تعلق شديد بحيث يجعلهما لا يريان في الحياة الدنيا سواء في مظهرها أو في مخبرها ، إلا الأولاد ، في جانب المال أو بعده .

بينما القرآن ذاته في ذكره للوالدين يعبر عنهما بأنهما في حياة الأولاد زينة أو موضع فتنة وتفاخر لهم . بل ذكره لها : يذكرها على أنهما يجب أن يسكونا موضع الرعاية من أولادهم . فقل في سورة النساء : « وبالوالدين إحسانا ... » وفى سورة البقرة : « يسألونك ماذا ينفقون ، قل ما أنفقتم من خير فلو للوالدين والأقربين ... » .. وفى سورة لقمان : « ووصينا الإنسان بوالديه » .. وفى سورة العنكبوت : « ووصينا الإنسان بوالديه حسنا ... » .. وفى سورة الأحقاف : « ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً » .

وهذا الفرق في تعبير القرآن الكريم عن الأولاد والوالدين : يدل على أن الصلة في سيرها العادى بين الطرفين ليست متماثلة ، وأنها في جانب الوالدين أقوى منها في جانب الأولاد .

ورسالة القرآن الأخلاقية في هذه الصلة إذن يجب أن تبلغ الطرفين .. إلى التكافؤ والتعادل في سلوك كل واحد منهما نحو الآخر .. يجب أن تغير مجرى سيرها العادى إلى خطوات متساوية بينهما حتى تكون نقطة الالتقاء . وسطاً بين الإثنين ، فلا يميل أحدهما الآخر ولا يزهده في لقائه . وبما أن الدافع إلى هذا الالتقاء الوسط متوفر لدى الوالدين بحكم الطبيعة أو الإلف والعادة ، أكثر من توفره عند الأولاد : كانت وصايا القرآن في الصلة بين الطرفين تكاد تكون موجهة إلى الأولاد

وخدمهم ، وفي صورة تجعل طلب ذلك من الأمور التي لا يفتخر بالتخلف فيها بحال . ومظهر ذلك في تعبير القرآن الكريم : أنه يقرن طلب الإحسان من الأولاد إلى الوالدين .. بطلب عدم الشرك في العبادة .

يقول الله تعالى في سورة البقرة : « وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً ٠٠٠ » .. ويقول في سورة الإسراء : « وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحساناً ٠٠٠ » . ويقول في سورة الأنعام : « قل تعالوا أتتل ما حرم ربكم عليكم ، أن لا تشركوا به شيئاً ، وبالوالدين إحساناً ٠٠٠ » .

وقد يضيف القرآن الكريم إلى هذا الاقتران : الأسباب والدوافع التي من شأنها أن تدفع الأولاد أصحاب الفطر السليمة إلى البر بالوالدين والإحسان إليهما . لأن هذه الأسباب منتزعة من تطور الأولاد أنفسهم : يقول الله تعالى : « وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كَرْهًا وَوَضَعَتْهُ كَرْهًا <sup>(١)</sup> » .. ويقول « وَقُلْ رَبُّ أَرْحَمُهُمَا كَارَبِّيَٰنِي صَغِيرًا <sup>(٢)</sup> » .

ثم إن القرآن بينما لم يحدد تفصيل السلوك الذي يسلكه الوالدان نحو أولادهم اعتماداً على الدافع الطبيعي القوي عندهم - يعنى بتحديد المطلوب من الأولاد نحو والديهم . يقول الله تعالى : في تكملة آية الإسراء السابقة ، وفي آية أخرى بعدها : « وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه ، وبالوالدين إحساناً ، إما بباغض عندك الكبير أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ، ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريماً ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً » .

وهو إذ يطلب من الأولاد هذه المعاملة الدقيقة المهذبة في صلواتهم بوالديهم فالرعاية الأخرى كالإفناق والسكنى عند مجزها أوجب وأشد ضرورة .

\* \* \*

ولم يطلب القرآن من الوالدين في صلاحهما بأولادها إلا عدم الافتتان بهم .  
والافتتان بالأولاد من شأنه أن يلهمي الوالدين عن ذكر الله ، ووصاياه وتعاليمه في  
حياة الإنسان . يقول الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ ، وَلَا  
أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ <sup>(١)</sup> » . وعندئذ يسئان تقدير الحياة . وعاقبة ذلك : انحرافها  
في توجيه الأولاد وبالتالي انحرافهما في الاستمتاع بهم . فتكون حياة الطرفين  
حياة خالية من الاستقرار النفسي ، مليئة بالأحداث المفاجئة المزججة .

\* \* \*

هذا ما يطلبه القرآن في صلة الوالدين بالأولاد ، سواء من جهة الوالدين أم  
من جهة الأولاد أنفسهم . وما يطلبه ها وهناك قائم على اعتبار الفطرة الإنسانية  
التي لم يمرضها شذوذ وتخلف في نموها وتطورها . وتلك هي حال الإنسان السائدة .  
وهذه الحال هي الأساس في فهم توجيه القرآن لصلة الوالدين بالأولاد ، والأولاد  
بوالدين .

أما نهى القرآن الآباء عن قتل أولادهم خشية الفقر ، كما في قوله تعالى .  
«... وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ . نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ <sup>(٢)</sup> » . وقوله تعالى :  
« وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ، إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطَاً  
كَبِيراً <sup>(٣)</sup> » . . . وأما حديث القرآن عن عداوة بعض الأولاد لوالديهم — أما هذا  
وذلك : فإنه لا يقوم على الطبيعة الإنسانية ولا يحدد منهجاً لطريقها العادي . إنما هو  
علاج لحالة طارئة . . . علاج لانحراف غير شائع في طبيعة الأولاد ، تخلفه البيئة  
المنحرفة إذا طال انحرافها فيسيئان تقدير الحياة من أجلهم .

ومنهج الأخلاق في أدب القرآن هو أن يحسن الأولاد إلى الوالدين . وليس  
إحسانهم هو إنفاقهم . إنما هو قبل ذلك التعبير عن شعور الاحترام نحوها :

(٢) الانعام : ١٥١

(١) المنافقون : ٩

(٣) الاسراء : ٣١

«فَلَا تَقْلُ لَهَا أُمَّ وَلَا تَنْهَرُهَا وَقُلْ لَهَا قَوْلًا كَرِيمًا، وَاخْفِضْ لَهَا جَنَاحَ الذُّلِّ  
مِنَ الرَّحْمَةِ (١) ..» . . . وأيضاً أن لا يفتتن الوالدان بأولادهم، وأن يكونا معتدلين  
في ميلهما إليهم وفي محبتهم إياهم .

والإحسان من جانب ، وعدم الافتتان من جانب آخر: هو الطريق الأمثل  
إلى التكافؤ والتعادل في صلة الأولاد بالوالدين والوالدين بالأولاد . وتلك سنة  
القرآن في كل جانب من جوانب الحياة الإنسانية .

## الأسرة .. صلة الأقارب

حديثنا هذا عن صلة الأقارب بعضهم ببعض حسما توصى أخلاق القرآن الكريم . هو الموضوع الثالث من موضوعات الأسرة ، بعد موضوع صلة الزوجين ، وصلة الأبناء بالآباء .

وما هدف إليه القرآن هناك في صلة الزوجية ، وصلة الأبناء بالآباء من دعم الروابط ، وتقوية أواصر الصلة عن طريق التكافؤ والتعادل بين الطرفين - هو ذات الهدف هنا أيضاً في صلة الأقارب بعضهم ببعض .

أقرب الإنسان مصدر قوته إن هم أخلصوا في صلتهم به ، والتفوا حوله . لأنهم عندئذ بالنسبة له أكثر من الإنسان العادي ، وأكثر من الجار ، وأكثر من المواطن . هم نظراؤه في الدم ، وفي الطبايع الموروثة والمادات المألوفة والميول المسيطرة ، والاتجاهات اللازمة . هم عصبته ، وعدته ، وقومه بالمعنى الخاص . ولكن هم أنفسهم قد يكونون مصدر ضعف له ، إذا حقدوا عليه ، وتمسكت من أنفسهم شهوة الغيرة منه . وليسوا عندئذ سيكعاديا في أضعافه ، وخصومته ، أو على الأقل في إزعاجه وعدم طمأنينته . ذلك لأن السبب الذي به كانوا قوة له عند إخلصهم في علاقتهم به هو السبب نفسه في شدة تأثيرهم عليه ، وعلى نفسيته في الحياة إن اضطربت صلاتهم به ، وانحرفت عن الوضع السليم .

تلك هي سنة الإنسان مع أقربائه : إما أن يقوى بهم الإنسان أو يضعف بسببهم . والقرآن الكريم أفصح عن هذين الجانبين في صلة الإنسان بأقاربه في الدم والنسب . يقول الله تعالى في الإفصاح عن الجانب الأول على لسان موسى عليه السلام مناجياً ربه : «وأخى هارون هو أفصح مني لساناً ، فأرسله معي ردهاً

يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَيِّدُوا بِي. قَالَ : مَسْنَدٌ عَضُدُكَ بِأَخِيكَ ، وَنَجَمَلُ لَكَ سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ بِآيَاتِنَا ، أَنْتُمْ وَمَنْ اتَّبَعَكُمْ الْغَالِبُونَ « (١) .

أما الجانب الآخر فتمثله قصة يوسف عليه السلام مع إخوته . انحرفت علاقة القرابة بينهم وبينه ، فحقدوا عليه وحاولوا أن يكيدوا له في أشنع صور الكيد ، وهي العمل على قتله والتخلص منه لتخلو لهم الحياة مع أبيهم ويتفردوا بصحبته . يقول الله تعالى : « لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْسَّائِلِينَ ، إِذْ قَالُوا : لِيُوسُفَ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ . اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَبْحَلُ لَكُمْ وَجْهٌ أَبِيكُمْ ، وَتَكُونُوا مِنْ بَدَنِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ » (٢) . نعم هم قد ندموا بعد ذلك على ما عقدوا عليه العزم ، وحاولوا تفيذه كما يدل عليه قوله تعالى : « قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ وَإِذَا يَلْقَى السَّائِلِينَ مِنْهُمْ قَوْلًا طَيِّبًا ، وَتَوَلَّى وَرَبُّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ لِيُخَوِّدَ مَنْ يَشَاءُ لَئِنْ لَمْ يَدْعُوا إِلَى حَقِّ اللَّهِ لَيَكُونَنَّ مِنَ الْمَفْذُولِينَ » (٣) .

« وَقَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ » (٤) . ولكن موقفهم كأخوة من أخ لهم أول الأمر : يعطى أن الأقارب قد يدفعهم الحقد والانحراف في علاقة بعضهم ببعض ، إلى أن يكونوا مصدر ضعف وإزعاج وقلق ، بدلا من أن يكونوا مصدر قوة ، وعون ، وجاه .

#### توجيه القرآن في صلة الإنسان بأقربائه

وإذا كانت هذه سنة الإنسان في علاقته مع أقاربه ، وكانت قوته بهم أضعفه عن طريقهم أمرا غير عادي — كان من السلامة في توجيه الإنسان نحو أقربائه أن تزداد عنايته بهم ، على نمو صلتهم به ، وأن يكون هناك تكاثر وتعادل بين هذه الصلة ورعاية شأنها . وهذا التوجيه هو مانسه في أخلاق القرآن في صلة الإنسان بأقربائه وأولى رحمه .

وتوجيه القرآن في هذا الشأن يتناول العناية بهذه الصلة من الجهة النفسية والروحية ، ثم من الجهة المادية .

(١) القصص : ٣٤ ، ٣٥ (٢) يوسف : ٧ - ٩

(٣) يوسف : ٩١ (٤) يوسف : ٩٧

يقول الله تعالى : « واولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله ..  
إن الله بكل شيء عليم<sup>(١)</sup> » ، ويقول : « ذلك الذي يبشر الله عباده ،  
الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة  
في القربى<sup>(٢)</sup> » . ففي هاتين الآيتين السكريتين أبرز القرآن مدى حرصه على  
أن يعنى الأقرب بعضهم ببعض في صلاتهم .

فعبّر في الآية الأولى بأن كون الأرحام والأقرب بعضهم أولى ببعض في  
رعاية العلاقات والترابط أمر مسطور في كتاب الله ، ولم تخل عنه رسالة من  
رسالات السماء . ودلالة هذا التسجيل زيادة الحرص من قبل الله تعالى على أن يعنى  
الناس بملاقة القربى عناية شاملة ، لا تقل فيها العناية بترضية النفوس والابقاء  
على صفتها : عن العناية بمساعدة المعوزين من الأقرباء مساعدة مادية تقيهم شر الحقد  
على الأغنياء فيهم ، وشر الدل للحاجة نفسها .

وفي الآية الثانية نص بالذات على المودة في القربى كعمل من الأعمال الصالحة  
التي يثاب ويؤجر صاحبها عند الله على القيام بها .

ثم يخاطب هاتين الآيتين اللتين تدلان على طلب الرعاية في صورها المتنوعة  
لعلاقة القرابة — نحمد آيات أخرى تطلب من المومنين أن يعنوا بأقربائهم ويسهموا  
في سد حاجاتهم ، لا بمنوان أنهم فقراء أو مساكين ، بل بمنوان أنهم أقرباء .  
يقول الله تعالى : « فآت ذا القربى حقه ، والمسكين وابن السبيل ، ذلك  
خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون<sup>(٣)</sup> » ، ويقول : « يسألونك  
ماذا ينفقون ؟ قل ما أنفقتم من خير فلو للوالدين ، والأقربين ، واليتامى ، والمساكين  
وابن السبيل ، وما فعلوا من خير فإن الله به عليم<sup>(٤)</sup> » . ويقول : « ليس البر أن  
تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ،

(١) آخر سورة الأنفال (٢) الشورى : ٢٣  
(٣) الروم : ٣٨  
(٤) البقرة : ٢١٥

والملائكة، والكتاب، والتدين، وآتى المال على حبه: ذوى القربى، واليتامى،  
والمساكين، وابن السبيل، والسائلين وفي الرقّب ...» (٣).

وزيادة اهتمام القرآن بطلب العناية بعلاقة الأقرباء بعضهم ببعض حتى تتكافأ  
منزلة هذه العلاقة في أصل وضعها وفي آثارها الطيبة إذا استقام أمرها - يدل  
عليها تقديمه دائماً في استحقاق الحصول على أموال البذل والعطاء: الأقرباء الذين  
ليس لهم بسار، وبهم حاجة - على غيرهم خارج الأمرة: «فآت ذى القربى  
حقه، والمسكين» .. «وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى ..» «قل  
ما أمقتم من خير فلوالدين، والأقربين واليتامى» .

وسئل النبي صلى الله عليه وسلم عن صدقة الرجل على قريبه فقال: «له اجران:  
اجر القرابة، واجر الصدقة» . ولفظ الحديث في رواية النسائي والترمذي:  
«الصدقة على المسكين صدقة، وهى على ذى الرحم ثنتان: صدقة، وصلة» .

\* \* \*

تعانى الأمرة كثيراً من مظاهر الضعف والفرقة . وبدلاً من أن تكون  
الزوجية، والبنوة، والقرابة عوامل قوة أضحت من أسباب الخسومة،  
والانقسام، والتماق . إن أزمة الأمرة في هذه العلاقات أزمة سوء فهم وتطبيق،  
وأزمة أنانية وانفرادية .

وأراد القرآن فيما أوحى به في منهج السلوك والمعاملة بين أفراد الأسرة  
بعضهم مع بعض: أن يجنبهم الانحراف والتماق، والنزاع . أراد أن يوفق وأن  
يلائم بينهم في اتجاهمهم في الحياة وفي تفهمهم بالحياة . أراد أن تكون الأسرة  
قوية صاحبة عزة وسيادة، تلى نفسها وعلى غيرها .

وطريق الضعف واضح، وهو طريق الخسومة والأنانية . وطريق القوة  
واضح وهو طريق الانسجام والمشاركة والمعاونة . ومنهج القرآن الأمرة هو طريق  
القوة، وطريق النجاح والأمل في الحياة .

## الجماعة وتنظيم علاقة الأفراد فيها

تحدثنا عن أخلاق القرآن بالنسبة للأسرة . ورأينا أن الغاية التي تقصد إليها وصايا القرآن الكريم في الجانبين: هي حفظ التوازن ، وصيانة الأمر عن التطرف .  
والآن نعرض لأخلاق القرآن فيما يتصل بالجماعة ، وما فصلته آياته في تحديد علاقة الأفراد بعضهم ببعض في ظل هذه الوحدة الكبيرة التي تتناول أسراً مختلفة وقبائل عديدة ، وأجناساً بشرية متغايرة ، وهي وحدة الجماعة .

\* \* \*

يوجد الأفراد بحكم التوالد والقبائل ، وذلك أمر طبيعي في الانسان . وتوجد الأسرة - وهي الوحدة الصغيرة - بحكم علاقة الدم والقرابة ، وهي علاقة طبيعية في دائرة الكائن الحي . أما الوحدة الكبيرة وهي الجماعة فوجودها يتوقف فحسب على الأسباب التي تكتنف أفرادها بحكم البيئة أو الموطن أو إمكانيات العيش . بل لا بد في وجود أية جماعة وجوداً قوياً ظاهراً من وحدة الغاية والهدف . لأن وحدة الغاية والهدف هي المركز الذي يتجمع الأفراد حوله ، ويتكاملون من أجله ، وتشتد الأواصر بينهم بسببه ، وتصير إلى اخوة في النفس والروح ، بعد التقاء على المبدأ والفكره .

غاية الجماعة الاسلامية :

والقرآن الكريم فيما أوصى به من أخلاق للجماعة ، لم يوص إلا بعد أن حدد الغاية للجماعة التي يريدونها ، والتي عمل على تكوينها . ووصاياه هنا بعد ذلك هي وصايا لحفظ توازن هذه الجماعة ، وبالتالي لحفظ علاقات الافراد فيها من التفكك أو التلاشي .

والغاية التي حددها القرآن لجماعته هي عبادة الله وحده . يقول تعالى :

«واعبُدوا الله ولا تشركوا شيئاً»<sup>(١)</sup> .. «..» .. «قل إني أمرتُ أن أعبد الله مخلصاً له الدين»<sup>(٢)</sup> .. «ذلكم الله ربكم، لا إله إلا هو، خالق كل شيء، فاعبدوه، وهو على كل شيء وكيل . لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، وهو اللطيف الخبير»<sup>(٣)</sup> .. «إن هذه أممكم أمّة واحدة وأنا ربكم فاعبدون»<sup>(٤)</sup> .

وهو إذ يحدد غاية الجماعة بعبادة الله وحده، يدفع أفرادها إلى الشعور بالكرامة، والسير في الحياة دون عائق من أوهام الوثنية في أية صورة من صورها . والشعور بالكرامة، والانطلاق في الحياة من قيود الخرافة والشعوذة، واقتحام الصعاب فيها دون إنتظار لوضع نجم أو كوكب، ودون إذن وصى أو سيد — غايات تستهدف من عبادة الله وحده . وأصحاب هذا الشعور أو أشكهم الذين انطلقت نفوسهم من قيود الخرافة والشعوذة والوثنية يضيفون إلى قوتهم كأصحاب سعى وحركة، قوة توجيه سليم وبقظة مستمرة . وهم لهذا وذاك لا بد أن ينجحوا إذا كالغوا، ولا بد أن ينتصروا إذا خاصموا .

### وصايا القرآن لحفظ الجماعة

ولكى لا يدخل عامل ضعف في علاقات الأفراد في هذه الجماعة فنتجه نظرهم إلى هذه العلاقات بمد أن ارتفعت إلى الله سبحانه، وينتج كفاحهم في صلوات بعضهم ببعض بمد أن تركزت فيما وراء فرديتهم وذواتهم — أوحى القرآن الكريم بما يحفظ هذه العلاقات ويديم نظرهم إلى الله، وكفاحهم لصالحهم كجماعة يرون في سيادتها سيادة لأنفسهم، وفي عزتها إعزازاً لهم جيلاً بعد جيل .

١ — أوصى القرآن باحتفظ الجماعة بسيادتها لنفسها على نفسها، وذلك بأن

(١) النساء : ٣٦  
(٢) الزمر : ١١  
(٣) الأنعام : ١٠٢ ، ١٠٣  
(٤) الأنبياء : ٩٢

لا يكون لأفرادها ولاء غير بعضهم بعضاً، أى لا تكون للدخيل بينهم طاعة عليهم، ولا يرقى هذا الدخيل في نفوسهم لدرجة أن تكون له وصاية، أو يعد مرجعاً في إبرام شئونهم. يقول الله تعالى: «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة، ويطيعون الله ورسوله، أولئك سيرحمهم الله، إن الله عزيز حكيم<sup>(١)</sup>» يوصى القرآن بذلك لأنه إن قبلت الجماعة ولاية الأجنبي ووصايته ابتعدت عن الهدف والغاية التي اجتمعت حولها قبيل، وأضحت أفراداً فقط مختلفي النزعة والقصد.

٢ - أوصى القرآن كذلك بالعدل في الحكم بين الناس. يقول الله تعالى: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإدا حكمتهم بين الناس أن تحكموا بالعدل<sup>(٢)</sup>». فيوصى القرآن بالعدل في الحكومة والفصل بين الناس لأنه أساس الاطمئنان بين الافراد على أنهم سواء في ظل الجماعة، وأن الجماعة لذلك ليست حزباً، بل رعاية عامة. وهذا الاطمئنان يوصى بدوره إلى التمسك بالجماعة والكفاح في سبيل بقائها ووازرتها.

٣ - أوصى القرآن بالثبوت في قبول الأخبار المفرضة، وخص شائعات السوء. يقول الله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين<sup>(٣)</sup>». أوصى بذلك لأن سرعة التصديق تمثل هذه الأخبار والشائعات لا يقف عند حد تمزق وحدة الجماعة، بل من شأنه أن يثير فتنة وينتهي بخضومة عنيفة بين أبناء الجماعة الواحدة، وبذلك تتحول إلى طوائف متباينة القصد والسعى.

(٢) النساء : ٥٨

(١) التوبة : ٧١

(٣) الحجرات : ٦

٤ - أوصى القرآن بدم استغلال الضعيف : أوصى بعدم استغلال اليتيم ، ومن على شاكلته كالأجير ، أو الأسير . يقول تعالى : « وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً<sup>(١)</sup> » . وذلك لأن استغلال القوى للضعيف لا يدل على ترابط في وحدة واحدة بينهما ، ولا على تعلقهما بهدف واحد وغاية واحدة . وإنما يدل على أن الجماعة جمعها وسيلة لتحقيق الأغراض الخاصة ، ولم تجمعها رعاية الحقوق لكل فرد فيها .

٥ - أوصى القرآن بتقريب الفروق بين الأفراد ، حتى لا يشعر الفقير بحرمانه ، ولا المريض بمجزه ، ولا الجاهل بحمقه وسوء تصرفه ، ولا الصغير بمحدثاته عهدته ، ولا الشيخ بوهن شيخوخته : أوصى صاحب الثروة بالإففاق ، وصاحب الصحة بالمداونة ، وصاحب المعرفة والفقه بالتوجيه ، والسكبير برحمة الصغير ، والصغير بتوقير الكبير . أوصى بذلك وبمثله ، ولكنه شدد كثيراً في طلب بذل المال والإففاق من ذوى اليسار . وذلك لأن من شأن المال أن يعرى صاحبه على عدم الإففاق ، كما أنه من شأن الحرمان أن يثير القلق والحسد والبغضاء في نفوس المحرومين ضد غيرهم من الموسرين . يقول تعالى : « والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم ، وأقاموا الصلاة ، وأتقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، ويدرأون بالحننة السيئة ، أولئك لهم عقبى الدار<sup>(٢)</sup> » . ويقول : « أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرأون بالحننة السيئة ، ومما رزقناهم ينفقون<sup>(٣)</sup> » .. وآيات أخرى كثيرة تحض على الإففاق والبذل ، وتنهى عن الشح والبخل .

هدف القرآن في هذه الوصايا :

وإذا أوصى القرآن بذلك وبغيره مما يتصل بشأن الجماعة : فهدفه أن يبقى على

(٢) الرعد : ٢٢

(١) النساء : ٢

(٣) القصص : ٥٤

التكامل والتجمع ، وأن يحول العوامل الممزقة ، التي ترجع جميعها إلى اختلال التعادل والتوازن في الجماعة . فاعتبار الأجنبي والولاء له ، والتجيز في الحكومة والقضاء بين الناس ، والمصارعة في قبول الأنبياء المرصدة ، واستغلال القوى للضعيف ، وعدم تقرب الغنى من صاحب الحاجة ، صاحب المال من الفقير ، وصاحب المعرفة من الجاهل ، والصحيح من المريض ... إلى غير ذلك — كل هذه أمور تؤدي لا محالة إلى الاختلال في توازن الجماعة .

والقرآن الكريم يريد لأفراد المجتمع أن يكونوا متوازنين بين رغباتهم الشخصية ومصالحة الآخرين ، ولأسره أن تكون متوازنة في حقوقها وواجباتها ، ولجماعته أن تكون متوازنة كذلك في رعاية أفرادها وفي علاقات بعضهم ببعض . إذ رسالة القرآن الكريم في أخلاقه هي رسالة التعادل والتوازن ، وهي لذلك رسالة الاطمئنان ، والاطمئنان هو السعادة .

## مبادئ إنسانية من حياة الرسول

إن المبادئ الإنسانية هي التي ترمم السلوك المثالي في حياة الإنسان . إنها المعاني التي إذا وصل إليها الإنسان كان مهذباً في عشرته ومعاملته ، وكان له خلق الإنسان الحر الذي استطاع أن يتخلص من شهوته وأنايته ، ومن تحكّمها فيما يفعل أو يأتي به من عمل ، وكان له خلق الإنسان الكريم الذي أدرك قيمة نفسه فحافظ على وضعها البشري ، ولم ينزل بها إلى درك أدنى ومنزلة أقل . حافظ على أن تبقى له القيادة في الحياة ، كما أراد له الله ، حيث سحر له ما في السموات وما في الأرض فقال: **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ (١)** .

وبغير ترمم الإنسان لطريق المبادئ الإنسانية لا يستطيع أن يقود نفسه ، ولا أن يسود غيره مما في الأرض والسماء ، ولا يكون عندئذ غيره مما في الأرض والسماء أيضاً : مسخراً له .

والقرآن الكريم عندما وصف الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله : **« وَإِنَّكَ لَكَلِمٌ خُلِقَ عَظِيمٌ (٢) »** - عبر عما كانت عليه حياته من سمو الإنساني ، وعما اشتملت عليه من المبادئ والمستوى الرفيع في التهذيب والسلوك .

ومن أجل ذلك تعتبر حياة الرسول صلى الله عليه وسلم - بجانب القرآن الكريم - مصدراً عملياً من مصادر التوجيه للإنسان المسلم ، كما تعتبر نموذجاً بشرياً للإنسان الفاضل الكريم .

حياة الرسول تطبيق عمل لوصايا القرآن :

وأخص ما كانت تتميز به حياة الرسول صلى الله عليه وسلم : أن خلقه كان

يحكى ما فى القرآن من تعاليم ووصايا . ولذا قالت عائشة رضى الله عنها : « كان خلقه القرآن » .. عندما سئلت عن خلقه الذى يتخلق به .

وإذن هناك صلة وثيقة بين القرآن وتعاليمه من جانب ، وبين حياة الرسول صلى الله عليه وسلم التى عاشها ، والتى دعا الناس أن يتأسوا بها من جانب آخر . وكان ذلك أمراً ضرورياً ، يحتمه أولاً اختيار الله سبحانه وتعالى إياه لرسالته ، ويحتمه ثانياً كونه هو عايه الصلاة والسلام مبعثاً لهذه الرسالة وداعياً لها . قاله لم يختره لهذه الرسالة إلا حيث علم مكان نفسه من الطهر والصفاء ، وعلم تمكن المعاني والمبادئ الإنسانية فى نفسه . وهو نفسه صلى الله عليه وسلم لم ينبجج فى دعوته وفى تبليغ الله إلا لأنه قد تمتل فى نفسه مبادئ تلك الدعوة ، وإلا لأنه يسلك وفقاً لما كان يدعو إليه ، ولما كان يباغى إلى الناس من مبادئه .

ولذا إذا تحدثنا هنا عن المبادئ الإنسانية فى حياة الرسول ، فإنها تلك المبادئ التى جاء بها القرآن الكريم ، والتى أمر هو بتبليغها للناس ، كي يكون سلوكهم فى الحياة سلوكاً إنسانياً مهذباً حراً كريماً .

وأخص ما جاء به القرآن الكريم : « وسأرعوا إلى مغفرة من ربكم وجنته عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين . الذين ينفقون فى السراء والضراء ، والكائمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين » (١) . يقول القرآن الكريم ذلك فى وصف المتقين الذين أعد لهم الجزاء الأوفى فى الآخرة ، فيجعل من وصف هؤلاء المتقين أنهم يكظمون الغيظ . عندما يثارون ، وأنهم يعفون عن الناس إذا ما قدروا وتمكنوا من النار والانتقام منهم . وقد عرف عن الرسول عايه الصلاة والسلام أنه كان أسرع المؤمنين إلى كظم الغيظ ، وإلى العفو والصفح عن من يسيء إليه ، وفى الوقت الذى كان يمكن أن يأخذ بحقه

من عفا وصفح عنه . فقد كان صلى الله عليه وسلم جالساً بين أصحابه إذ جاء أعرابي وأمسك بشوبه وجذبه جذباً عتيقاً حتى أتر الثوب في عنقه وقال له : أعطني يا محمد من مال الله الذي عندك ، فإنك لاتعطيني من مالك ولا من مال أبيك . فأنارت هذه العظيمة من كان جالساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهموا بالرجل ولكن الرسول الكريم الذي وصفه الله بأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم ، حال بينهم وبينه ، ثم قال للرجل : المال مال الله ويقاد منك يا أعرابي ، فقال : لا . قال : لماذا ؟ قال : لأنك لاتجزي بالسيئة السيئة ، فابتسم صلى الله عليه وسلم وأمر أن يحمل له على بعير : شعير وعلى الآخر : تمر .

وكذلك أخص ما جاء به القرآن الكريم من مبادئ : رعاية حرمة النفس والمال ، والعرض . فالقرآن يقول في حرمة النفس : « ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق <sup>(١)</sup> » ، ويقول في حرمة المال : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل <sup>(٢)</sup> » ، ويقول في حرمة العرض : « ولا يغترب بعضكم بعضاً : أحبب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه <sup>(٣)</sup> » . يقول القرآن ذلك حثماً للمؤمنين على رعاية الحرمات ، وعلى الاحتفاظ لكل فرد بحقه في الحياة يتمتع به آمناً مطمئناً ، دون أن يزعج في نفسه ، أو في ماله ، أو في عرضه . وقد عرف عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه كان أشد المؤمنين رعاية للحرمات في عمله وفي وصاياه . فمتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فاتحاً ، ومكنه الله من أولئك الذين آذوه واضطهدوه ، وتأمروا على قتله ، وأخرجوه من داره ، وظن هؤلاء أن الرسول لابد آخذ بثأره ، منتقم من أساء إليه وإلى أصحابه .. عندما مكنه الله منهم - سألم ماتقنون : أنى فاعل بكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم ، قال : « اذهبوا فأنتم الطلقاء » .

(٢) البقرة : ١٨٨

(١) الأنعام : ١٥١

(٣) الحجرات : ١٢

هذان المبدآن اللذان إذا اقتنع بهما الإنسان ، وشار عليهما في حياته — كان معبراً عن إنسانية مهذبة ، وعن مدى تمكن المستوى الإنساني الرفيع من نفسه . فالنفس تواقه بحكم طبيعتها الحيوانية إلى أن تتأثر عند المقدرة ، وإلى أن تعتدى على الغير عند استطاعة الاعتداء . فإذا تسامح الإنسان عند المقدرة على الانتقام ، وراعى حرمات الغير عند المقدرة على الاعتداء عليها — يكون قد حكم إنسانيته . . . حكم عقله وحكم إرادته الإنسانية ، وأدرك أنه حر فوق شهواته الحيوانية ، وأنه كريم لا ينزل بنفسه إلى مستوى الحيوان في استخدام المضلات والطاقة الحيوانية ، عندهم تكون له القدرة على ذلك .

وحياة الرسول عليه الصلاة والسلام ترينا مبادئ عديدة من المبادئ الإنسانية . ولكننا آثرنا التنويه بهذين المبدئين ، لأنهما الأمانة الواضحة على الحياة الإنسانية التي تقوم على المبادئ والمثل التي يسعى الإنسان إلى إدراكها وإلى تنميتها في سلوكه وتصرفاته .

ونحن إذا أردنا أن نأسي بخلق الرسول عليه الصلاة والسلام ، وبخلق القرآن الكريم ، فملينا أن نصفح عند المقدرة ، وأن نرعى حرمات الغير عند المقدرة على الاعتداء عليها كذلك . وبتأسينا بالرسول الكريم في حياته ، نكون نحى ذكراه في نفوسنا وفي دعواته .

## التضافر والتعاون

عن أبي هريرة رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :  
« المؤمن مرآة المؤمن ، والمؤمن اخو المؤمن ، يكف عليه ضيعته ويحوطه من ورائه ،  
في هذا الحديث :

يذكر الرسول عليه الصلاة والسلام : أن تعاون المؤمن مع المؤمن في الجماعة  
الإسلامية يدور في نطاقين :

(أ) في نطاق معنوى ، هو التوجيه .

(ب) وفي نطاق آخر مادى ، هو المشاركة في حفظ ما به قوام العيش ،  
والمشاركة في دفع الإيذاء .

### التعاون في نطاق التوجيه ؛

ففي النطاق الأول وهو نطاق التوجيه : عبر الرسول عليه الصلاة والسلام  
تصويراً للصلة ومدى وجوب التعاون بين المؤمنين : بأن المؤمن مرآة المؤمن .  
فلكي يدرك المؤمن نفسه ويقف على حقيقة ذاته ليستمر في طريقه في الحياة  
أو يعدل في سيره فيها له أن يسأل آخر في جماعة عن حال نفسه . كما ورد عن  
عمر رضى الله عنه أنه كان يقول لحذيفة رضى الله عنه هل ترى في شيئاً من  
علامات النفاق ؟ فيقول : لا والله يأمر المؤمنين . فالؤمن بالنسبة لمؤمن آخر  
يشبه مرآته . يرى فيها حال نفسه على الحقيقة ، لأنه أمين عليه ، ومبتغ خيره ،  
وعليه وزر التصير في حقه .

### التعاون في النطاق المادى :

وفي النطاق الثانى وهو نطاق المعاونة بين المؤمنين حدد الرسول صلى الله  
عليه وسلم هذا النطاق بكف الأذى وحفظ ما به قوام الإنسان ومعيشته من التلف

والضياع سواء ذلك في حضرة المؤمن الآخر المهتد بذلك وشهوده ، أو في غيبته ومن ورائه .

والمؤمن ينتظر من أخيه المؤمن أن يوجهه في تصرفاته وسلوكه في الحياة توجيهًا سليمًا نافعًا . وذلك بأن يذكر له ما في تصرفاته من استقامة وما فيها من نفع ، وما في طبعه وخلقه من حسن أو سوء . وهو إذ يعرف ذلك منه يبقى به تمام الثقة فلا يظن به السوء والانحراف في التصوير . لأن المفروض في المؤمن بالنسبة لأخيه أنه مرآة له . وكأن المرآة لا تنقل في تصويرها الشيء زيفًا أو دخلاً ليس في طبيعة هذا الشيء ، فكذلك المؤمن في تصويره لحال أخيه : مخلص في هذا التصوير ، بعيد عن الغرض والهوى ، والزيف والدخل . فالصورة التي يرسمها لأخيه المؤمن صورة نقية صافية .

المؤمن ينتظر من أخيه المؤمن أن يهونه في دفع الأذى عنه في نفسه أو ماله : والأولى ألا يكون هو مؤذياً له ولا متسبباً في إبدائه . يدفع الشر عنه قبل وقوعه ، ويجول بينه وبين أن يتعرض ماله للتلف أو نفسه للضرر . وهو إذ يؤدي له هذه المعاونة يؤديها له في غيبته وحضوره ، وفي غيبته يكون أدائها له أكد وأوجب . لأن طاب النصرة في هذا الحال يكون أدمى ، وفي جانب آخر يكون تصرفه عنده مطابقاً لما وصف به من أنه مؤمن .

#### اتر الايمان في ترابط الجماعة :

وشأن المؤمن مع المؤمن هو هذا الشأن إذن : الإخلاص في إعطاء المشورة والتوجيه ، والمشاركة في دفع الأذى والضرر ، وذلك منتهى ما ينتظر في صلة إنسان بإنسان .

المؤمن إنسان آت به الله واليوم الآخر . وبسبب إيمانه بالله واليوم الآخر ، ترقب منه الرسول عليه الصلاة والسلام أن يكون أحق لغيره في جماعة المؤمنين ،

وحدد مظاهر الأخوة بين الاثنين بالإخلاص في التوجيه والمشاركة في دفع الأذى والضرر ، على نحو ما جاء في الحديث الشريف .

والإيمان إذن هو مصدر الصلة بين مؤمن وآخر على هذا النحو . هو الباعث بين أفراد الجماعة على أن يكونوا في علاقاتهم بعضهم مع بعض على نحو ترتفع فيه الأناية الفردية وطفئانها ، وتسود فيه المعاونة والمشاركة لخيرهم جميعاً .

إن نتيجة الإيمان بالله في نفس الإنسان المؤمن هي أن يكون باستمرار في وضع يتيح له أن يعاون غيره وإن لم يطلب منه المعاونة ، وأن يكون درعاً لغيره يقيه الشر والإيذاء ، وإن لم يعلم هذا الغير بما عزم عليه أو بما قدمه في هذا السبيل . يجب أن يكون في وضع يكف فيه عن أخيه المؤمن ضعيفته ، ويحوطه من ورائه . والإيمان بالله لذلك معنى نفسى يملك على النفس أمرها في الحياة ، وأمر سلوكها فيها وقتاً لما جاء به الوحي ، وكلف بتبليغه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة .

إن العلاقة بين إنسان وآخر - التي يترتب عليها أن يكون كل واحد منهما مرآة للآخر - ليست هذه العلاقة العادية بين الإنسان والإنسان ، وليست هي العلاقة التي تسكونها فلسفة أو قانون وضعي . وإنما هي وليدة الإيمان بالله وحده .. وليدة الروح التي تأثرت بقدرة الخالق ، وبمخشيته في الدنيا ، و بانتظار لقائه في الآخرة .

إن الإيمان بالله هو الذى يخاق معنى « الجماعة » في نفس الإنسان ، وهو الذى يحمل الإنسان على أن يعترف بحق الإنسان في الحياة والوجود ، وهو الذى يحول الإنسان من أنانى جامع تتحكم فيه أنانيته إلى مشارك غيره في الحياة في أى مجال فيها : في الوجدان ، أو فيما وراءه من مادی الحياة ومعنويها .

ويروى عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : حق

المسلم على المسلم ست : قبل ما هن يارسول الله ؟ قال : « اذا لقيته فسلم عليه ، واذا دعاك فاجبه ، واذا استنصحك فانصح له ، واذا عطس فحمد الله فشمته ، واذا مرض فعده ، واذا مات فاتبعه » .

فالرسول عليه الصلاة والسلام يجعل المشاركة الوجدانية في مثل هذه الأحوال حقاً للمسلم على المسلم . لأن الإنسان في نظر الإسلام قبل أن يتأثر بجانبه المادى من الأكل والشرب وأحوال الميشة المادية ، يتأثر بالإحساس والشعور .

وبروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أيضاً أنه قال : « ثلاث من كن فيه ستر الله عليه كتفه وادخله جنته : رفق بالضعيف ، وشفقة على الوالدين ، واحسان الى المملوك » . كما روى عبدالله بن عمر رضى الله عنهما عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« المسلم اخو المسلم : لا يظلمه ولا يسلمه ، ومن كان في حاجة اخيه كان الله في حاجته ، ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة » .

فعلى المسلم أن يرمى غيره .. على المسلم أن يعترف بأن اغيره حتماً عليه ، هو أنه أخ وشريك .. على المسلم أن يتصرف مع غيره طبقاً لما اعترف له به من حق الأخوة والشركة :

(أ) يحول دون أضراره .

(ب) ويشاركه في سروره وأحزانه ، يترفق به في ضعفه وعجزه .

(ج) ويمد له يد العونة عند الحاجة .

(د) ويقدم له الرأى والمشورة ...

الى غير ذلك مما أوجبه الإسلام على المؤمن به نحو أخيه المؤمن في الجماعة .

وتدعياً للصلات من جانب ، ونقل الإنسان من حال الأمانية إلى حال الجماعة

من جانب آخر .

الإنسان المؤمن إيجابي نحو نفسه بأن يعمل لينقل نفسه من حال تحكم الأناية فيه إلى حال شعوره بالغير وإقراره بالمشاركة في الحياة .

وإيجابي نحو غيره، في أمرته الصغيرة أو في جماعته كلها، بأن يعمل لغيره ماستدعيه حالته . وأجل ذلك القرآن الكريم في التعاون على البر والتقوى وعدم التعاون على الإثم والعدوان . يقول الله تعالى : « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان <sup>(١)</sup> » .

ولأن الإيمان هو منشاء علاقة الأخوة والمعاونة بين الإنسان والإنسان ، عبر الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث بـ « المؤمن » عن الإنسان الذي انتظر منه أن تكون علاقته بغيره علاقة المرأة الصافية والدرع الواقي . .

وهذا الحديث الشريف إذ يطلب من الجماعة المؤمنة أن تكون متكاملة متضافرة على دفع الأذى وصنع الخير ، متعاونة على أن تبقى نفسها شرور الإنسان العادي وأن تحذف من أحداث الحياة بينها - هذا الحديث إذ يطلب ذلك فالقرآن الكريم يضيف إليه أن الجماعة الإسلامية لا يصح أن تقف في عداة الجماعات الإنسانية الأخرى ، طالما لا يكون هناك اعتداء عليها . فهو إذ يقول : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا <sup>(٢)</sup> » .. حدد الهدف من تعدد الجماعات - وفيها الجماعة الإسلامية - بالتعارف لا بالفرقة أو العداة .

الإسلام يحارب أن يكون الإنسان عدو نفسه باسترساله في أنانيته ، وأن يكون عدو جماعته بتخليه عن المعاونة فيه برأيه أو جاهه ، أو ماله ، أو نفسه ..

وأن تكون جماعته معتدية على الجماعات الإنسانية الأخرى . لأنها إذا اختلفت معها في التوجيه فهي مشاركة لها في الإنسانية .. ونأمل أن تكون مواخية لها في الإيمان .

(٢) الحجرات : ١٣ .

(١) المائدة ٢٥ .

## التواؤ

يقول الله تعالى : « وَبِن آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ <sup>(١)</sup> » .

القرآن هنا في هذه الآية يوجه الحديث إلى الناس جميعاً ، والقربى في الإنسانية التي جعلها بينهم من الصفات المتجانسة فيهم هي التي يجب أن تترتب عليها المودة والرحمة . فأساس المودة بين الناس موجود ، وهو أن بعضهم قريب من بعض ومتجانس مع الآخرين في صفات الإنسانية . فإذا نمت هذه الصلات الإنسانية بين الناس كانت المودة بينهم ، وكانت لرحمة فيهم .

ولا يحتاج الأمر في تنمية هذه الصلات ، حتى تكون مودة وتكون رحمة ، إلا إلى مراعاة هذه الصلات نفسها في الحديث .. أو في التصرف .

والقرآن نفسه قد تكفل بتوضيح الطريق إلى مراعاة هذه الصلات ، سواء فيما ينطق به الإنسان أو ما يأتي به من فعل . فيقول جل وعلا : « وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ <sup>(٢)</sup> » ، ويقول : « وَإِذَا حِينُكُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوْهَا ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا <sup>(٣)</sup> » . ينصح المؤمنين بأن تكون ألفاظهم في الحديث عموماً ألفاظاً منتقاة مهذبة ، وأن تكون معبرة عما يحسن إلى العلاقات دون ما يسيء إليها . كما يكون ردهم التحية على من يحيمهم ، كأننا من كان ، إما بأحسن مما حيوا أو على الأقل على نحو ما حيوا به . ويبلغ اهتمامه بهذا النصح إلى حد أن يعقب عليه بقوله : « إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا » .

(٢) الاسراء : ٥٢ .

(١) الروم : ٢٥ .

(٣) النساء : ٨٦ .

فرد النجبة بالمثل أو بأحسن من المثل ، كقيل بتنمية الصلات البشرية حتى تصبح هذه الصلات مودة ورحمة بين الناس .

وكذلك يقول انقرآن الكريم : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بانقي هي أحسن ، فإذا لذي بك وبينه عداوة كأنه ولي حميم (١) » .

وهذا القول يواجهه به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكنه يقصد به إلى أن يكون سناً وطريقاً لتعرف المؤمن جميعاً : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة » . . . أى لا يستوى أثر الحسنة في النفوس البشرية ولا أثر السيئة فيها . هناك موازنة بين الأثرين : أثر الحسنة على النفوس : حسن وجميل ، وأثر السيئة عليها : سوء وقبيح . وإذا كان أثر الحسنة هو السعادة على النفوس وامتلاكها ، وأثر السيئة هو تدميرها وابطادها ، فدفع المسائل والمشاكل بين الناس وتصريفها بالطريق التي هي أحسن وأجمل ، هو العلاج الأول لحل هذه المشاكل . وعندئذ لا تحمل هذه المسائل والمشاكل فقط ، ولا تضر النفوس بعدئذ بالراحة فحسب بل ستتحول العلاقات المتنافرة من قبل إلى صداقات قريبة ، وتزداد المودة بين الناس .

#### ما هو التواد ؟

هناك أسس للمودة بين الناس . وإن كان هذه الأسس يجب أن لا يرهاها طرف دون طرف ، بل كل إنسان عليه أن يراها وينميها . وعندئذ تكون المودة تواداً . فإذا قدم كل مودته الآخر ، وتوادت الأفراد في الجماعة كانت المحبة ولرحمة . ورسالة السماء هي في إعداد الناس إلى شيوخ المحبة والرحمة بينهم .

يروى عمر رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قوله : « ان من عباد الله لأناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى . قالوا يا رسول الله اتخبرنا من هم ؟ قال : هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها ، فوالله ان وجوههم لنور ، وانهم لعلى نور » .

التواد ليس هو تبادل المجاملة في نفاق، ولا تبادل الثناء فيما لا يوجب الثناء .  
هو إشعار الإنسان بأنه قريب الإنسان ، هو دفع الأذى عن الإنسان ، هو صنع  
المعروف للإنسان . التواد هو التعاطف ، هو تذاكر الروابط الانسانية بين الناس .  
دائرة التواد ليست دائرة محددة ، وهو كذلك مظهر بين الناس غير محدد :  
ظلموا سادة تواد ، وتبادل التحية تواد ، والرعاية في الحلمات تواد ، وحسن  
المعاملة والعشرة تواد .

### تعاليم الاسلام وسعادة البشر .

ونحن إذ نتحدث عن التعاون في البر ، ونتحدث عن التواد ، ونتحدث عن  
إكرام الجار ، ونتحدث عن الإحسان بين ذوى القربى .. إذ نتحدث عن هذا ومثله  
إنما ننقل تعاليم الإسلام في ذلك . لأن الإسلام يريد للناس أن يظفوا في مستوى  
الإنسانية ويمشوا في الروابط المشتركة بينهم . يريد لهم طمأنينة النفس ويدفع  
عنهم القلق والفرع . ومهما تقدم الإنسان في العلم ، ومهما قدم العلم للإنسان من  
خدمات فإن شيئاً واحداً لا يستطيعه وهو حمل الناس على الاستقرار ودفع شبح  
الخوف عنهم . وللإنسان أن يفاخر بالذرة وبمصراها ولكنه لا يستطيع أن يفاخر  
بأنه وحده بدون معونة من الله ، يستطيع أن يمكن للسلام في الأرض .

للإنسان أن يؤله العلم والذرة ، وأن يضيف على العالم والذرة طابع الدين  
والعقيدة ، ومع ذلك سيحتاج الناس إلى دين الله ، وسيبقى دين الله وليس دين  
الإنسان - هو الدين الحق : « هو الذى أرسل رسله بالهدى ودين الحق  
ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون (١) » .

## رعاية الجوار

عن عائشة رضی الله عنها عن النبي ﷺ قال :

« ما زال جبريل يوصيني بالجوار حتى ظننت انه سيورثه » .

١ - عن الإسلام بالجانب الاجتماعي في حياة الجماعة الإنسانية عناية لا تقل عن عنايته بصفة الفرد بربه : فأوصى برعاية الفنى للفقير ورعاية العالم للجاهل ورعاية الصحيح للمريض . وهو إذ يطلب هذه الرعاية قد يشدد في طلبها إلى درجة الالتزام والتحميم : ولم يقصد من ذلك أن تقترب النفوس من بعضها فحسب ، فتقترب نفوس ذوى الحاجات من ذوى اليسار ، ونفوس الجهلاء من العلماء ، والمرضى من الأصحاء . لم يقصد ذلك فحسب حتى تحذف حدة الفجوة بين النفوس ويقل الخقد والحسد ، بل هدف إلى ما وراء ذلك : هدف إلى أن تسير الحياة الاجتماعية سيراً طبيعياً إلى الأمام ، وأن تحذف آلام البشرية وأخطاؤها وأن تسود الطمأنينة المجتمع الإنساني ، ويصبح كل فرد عاملاً ومنتجاً في هذه الحياة : كل على حسب استعداده وطاقته البشرية . كما هدف إلى إيجاد وحدة متماسكة من الأفراد ، لا تنفذ إليها سموم الفرقة ولا عوامل الضعف التي تأتي غالباً من الفروق الواضحة بين الطبقات والأفراد ، وانعدام روح المشاركة عندئذ بينها وبين بعضها .

أوصى الإسلام بالزكاة وبالإحسان . ولم يقصر الزكاة والإحسان على المال . وإنما تجاوز بهما إلى ما ذكرنا في مجال العام والصحة . كما جعل دائرة النفع بالزكاة والإحسان غير خاصة بالقرب أو البعيد .

٢ - ولأجل أن الإسلام ينشد مجتمعة فاضلاً متماسك البناء لا يتأثر بالهزات القسية والجزازات الشخصية - طلب العناية بالجوار على وجه أخص ومشاركته في سرائه وضرائه وأحزانه وأفراحه : يقدم له العون المادى والأدبى إن استطاع إلى

ذلك سبيلا . يقدم له المشورة إن احتاج إليها في أزماته ، كما يؤثره بصنوف المساعدة المادية إن دعت حاجته إلى مثل هذا المساعدة . والحديث النبوي الشريف إذ يعبر عن العناية بالجار بقوله : مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه . -  
يفيد مدى الاهتمام به وإلى أي حد يجب التوفّر على معونته حتى لسكانه أحد أفراد الأسرة الخاصة التي فرض لها الميراث فيما يتركه رب العائلة . وأصحاب الميراث هم عادة الأفراد الذين تتركز فيهم عناية رب الأسرة في حاضرهم ومستقبلهم .

هذه العناية بالجار هي السبيل الأول إلى تكوين النواة الأولى في وحدة الجماعة . ولذا إذا قامت الوحدة بين الجار وجاره على أساس من المعاونة والمشاركة النفسية والوجدانية والمادية - كانت الجماعة التي تتكون من جيران بينهم هذا التماسك على أشد ما تكون قوة واتحاداً ، وأكثر ما تكون إيجابية في حياتها الخاصة والعامة .

إذا التقى الجار بجاره فحياه ، وإذا أصيب فواساه ، وإذا سر فشاركه في مسرته ، وإذا أزم فعاونته في حل أزمته - إذا حصل كل ذلك وأمثاله من الجار لجاره لاشك أن الفوارق الشخصية بحد ذلك بينهما لا تطنى على عوامل الوفاق والوئام ولا تؤثر في السير معاً لغاية واحدة : هي دفع الأذى عن كليهما ، وجلب المسرة لهما ولأفراد أسرتهما .

٣ - هناك بعد هذه العلاقة المرغوب فيها من الإسلام بين الجار وجاره وهي العلاقة التي تكاد تصل بهما إلى جعلهما أفراد أسرة واحدة : علاقات أخرى تختلف في بنى الإسلام لها شدة وضعفاً :

هناك علاقة الحيدة بين الجار وجاره ، لا يحاول أحدهما أن يتصل بالآخر : إذا التقيا لا يكاد ينظر أحدهما إلى الآخر فضلاً عن أن يقرنا بعضهما السلام . ويجوز أن يكون وقت فرح أحدهما هو وقت حزن الآخر . لا يشتركان في شيء ما : سوى

أنهما يتجاوران في المسكن ، أو كل منهما يعرف الآخر بشخصه لابقبله وعواطفه .  
وهناك علاقة التجاهل أو الاستخفاف : يصنع كل من الجار وجاره ما يؤذن  
بأن كل واحد منهما يعيش وحده في منطقة خاصة به . لا يرعى أن هناك مخلوقاً من  
الإنسان آخر يشاركه في الجوار ، وله عواطف الإنسان وإحساسات البشر : إذا  
سمع المذياع مثلاً أطلق العنان لصوته إلى آخر مراحل القوة فيه . لا يتخير من  
الأوقات لمعه إلا تلك التي اعتاد أن يستمع فيها إليه ولو كانت أوقات الشدة  
لجاره أو أوقات الراحة التي اعتاد الناس أن يروحوا على أنفسهم فيها وقت الظهيرة  
أو آخر الليل . وإذا حاول أن ينظف مسكنه فلا بأس لديه من أن يكون ذلك  
على حساب نظافة مسكن الجار وإحساساته وراحته وهدونه . وهكذا كل ما يحصل  
من الجار لجاره بناء عن تجاهل أحدهما للآخر أو الاستخفاف بوجوده .

وهناك علاقة الاعتماد على الجار وإيذانه عن قصد وإرادة ، سواء أكان ذلك  
لسيطرة معنى الاعتماد على أحد الجارين ، أو تنفيساً للمعانى النفسية البقيضة  
الكامنة فيه من حقد وحسد وأمثالها .

\* \* \*

فإذا كانت مشاركة الجار لجاره إلى حد اعتبار أحدهما الآخر كأي فرد من  
أفراد أسرته الخاصة هي التي يطلبها الإسلام من المسلمين ، والمؤمنين بتعاليمه -  
فإن المواقف الأخرى من الجار تجاه جاره يختلف الحكم عليها في الإسلام حسب  
مافيه من مخالفة لهذا الذي طلبه ، وحسب ما تنطوي عليه من إيذاء واعتداء .  
إن الإسلام لا يبتدئ إلا بسعادة الناس : وهي طمأنينتهم في معيشتهم وأنهم خير  
أنفسهم في حياة جماعتهم . ورعاية الجار لجاره على نحو ما يوصى به هذا الحديث  
النبوي الكريم دعامة قوية في تبليغ الناس هديهم في هذه الحياة . وهو :  
الطمأنينة في العيش والعمل المثمر في الحياة .

## المروءة

يروى عن ابن عباس رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :  
« تبسمك في وجه أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر  
صدقة ، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة ، وبصرك للرجل  
الردىء البصر لك صدقة ، وإماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق  
لك صدقة ، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة » .

في هذا الحديث الشريف تعرض الرسول صلى الله عليه وسلم لثلاثة أنواع  
من التصرف الإنساني ، عدها جميعاً صدقة ، وكلها وراء الفروض والتكاليف  
الدينية :

١ - النوع الأول : إتمام غيرك لقاء هماً ، يدل على الانشراح والسرور  
بمقابلته ، وهو نوع يتصل بوجودان الإنسان وعواطفه .

٢ - والنوع الثاني : إرشادك غيرك وتوجيهه لما فيه مصلحته وهدايته ، وهو  
يتصل بحكمة الإنسان الموجه ومعرفته .

٣ - النوع الثالث : تقديمك الماونة العملية لمن هو في حاجة إليها ، تبتدىء  
من مصاحبة ردىء الرؤيا أو عاجز البصر في طريقه . . إلى تنقية ما يؤذى الناس  
في طريقهم العام . . إلى البذل وإشراك غيرك فيما هو لك لحاجته إياه ، وهو  
يتصل بعمل الإنسان وقلمه .

فالإنسان يستطيع بأى جانب فيه من جوانبه الثلاثة : الوجدان ، والإدراك ،  
والعمل ، أن يكون معاوناً على تيسير أمر غيره ، ومساعداً على تذليل العقبات  
في طريق حياته وإطمئناؤه فيها . سواء أكانت عقبات مادية أو معنوية .

فإذا عاون غيره على هذا النحو ، لا بدافع علاقة القرابة بينهما ، ولا لصلة  
للرفقة والجوار مثلاً ، بل للرابطة الإنسانية العامة — كان هذا المعين ذا فضل ،

وعد عمله عندئذ صدقة ، لينال جزاءها من الله وحده ، وعد هو ذا مروءة ، وإنسانية لأنه لم يصدر فيما أتى به من تصرف معنوي أو مادي عن تكاليف كلف به من قبل الشارع ولا عن داعي القرابة والعلاقة القريبة، بل عن المشاركة والأخوة في الإنسانية عامة .

وهكذا كل تصرف ، وكل سلوك من الإنسان قصد به وجه الإنسانية ، ودفع إليه بدافع إنساني - كان مروءة . ويفرق بين هذا العمل وأداء ما كلف به الإنسان لأنه وجب عليه من قبل الشارع ، وإن انطوى أداؤه على عمل إنساني أو خدمة إنسانية .

فصاحب المروءة إنسان بلغت في نفسه المشاركة الانسانية مباناً يدفعه إلى معاونة ذي الحاجة من صحته وجاهه ، وماله ، ومعرفته ، وعواطفه الوجدانية لذات الإنسانية ، لا للقرابة والمعرفة كدافع ، ولا للارغبة في جزاء الدنيا من حسن الصيت كنتيجة منتظرة له .

والمروءة عمل إنساني وراء التكاليف والفروض الشرعية ، وتدل على أن صاحبها خطأ خطوة أخرى بعد الطاعة لأوامر الله ونواهيه ودخل في معنى الإنسان للمهذب المثالي . ولهذا يروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » .  
ويروى عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ما أكرم شاب شيخاً لسنه ، إلا قبض الله له من يكرمه عند سنه » .  
العبادات والمروءة .

إذا كانت المروءة عملاً إنسانياً بعد التكاليف والفروض الشرعية فالعبادات في الاسلام : من صلاة ، وصوم ، وزكاة ، وحج ، مقدمات تهيتها الإنسان لأن يكون ذا مروءة ، لأنها تحمل على تخفيف الأنانية وأثرها في نفسه ، وعلى إندماجها

بالتالى فى الجماعة ، فتقومى الروابط بينه وبين غيره . ويومئذ يسير فى طريقه الى المروءة ، والسلوك طبقاً للمعنى الإنسانى المشترك : الصلاة توجه الإنسان الى الله ، وعن عدد مراتها فى اليوم وفى صورتها المعروفة تفرس فى نفس الإنسان العابد غاية أخرى أسمى وأدوم ، وهى رضا الله سبحانه . وبذلك تحنف الدنيا وتحف مطالب النفس منها . والصوم فريضة أخرى لنفس الغاية من الصلاة ، ولكن عن طريق الامساك والحرمات المباشر من شهوات النفس ورغباتها فترة متكررة فى حياة العابد . والزكاة فريضة تحمل على التنازل بالفعل عن جزء مما يملك العابد المزكى لتغيره فى جاعته . وبذلك يشعر شعوراً عملياً بغيره وبإخوته . والحج فريضة مشاركة للزكاة أيضاً فى تمكين المعنى الجماعى فى نفس العابد وأخوة الإنسان له .

وهذه العبادة الإسلامية فى صورة فرائضها الأربع إذن : تسمى الإحساس القوى بمشاركة الغير للإنسان العابد فى الوجود والحياة معه ، وتدفع بمد هذا الإحساس الى معاونته عندما تدعو الضرورة للمعاونة والمشاركة الإيجابية .

#### العاملات الإسلامية والمروءة :

وأيضاً وصايا الإسلام فى العاملات المختلفة : فى المسائل المالية ، أو فى علاقات الأسرة ، أو فى الصلات العامة بالجماعة ، وهى الشعب والأمة — تهدف الى دفع الإنسان الى أن يكون فى سلوكه إنسانياً : يصدر فيه عن روح المشاركة لتغيره . وهذه الروح تتمثل أولاً وقبل كل شىء فى تجنب الضرر والغبين عن كل من الطرفين المتعاملين . فإن أتيح عقد التعامل بمد ذلك خيراً لها أو لأحدهما كان فضلاً وإحساناً ، وكان صاحب الفضل والإحسان منهما ذا مروءة ، وكان مجزياً بمجزاء مماثل عند الله سبحانه .

وليس من المروءة ، ولا من الإنسانية . ولا من التهذيب البشرى أن يكون عمل الانسان للإنسان هو المكيدة أو الإيقاع ، والإيذاء .

وليس أيضاً من المروءة أن يقف الانسان على الحياد ، أو موقف المتفرج  
حين مأساة إنسانية بسبب الجوع والفقير أو العجز ، أو بسبب انتهاك حرمة المال  
والملك ، أو انتهاك حرمة العرض . ومع أن ذلك ليس من المروءة فقد ذكر  
الرسول ﷺ أنه سيلحق به أثر موقفه هذا في حياته : يروى عن جابر رضى الله  
عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما من امرئ يخلل امرأ مسلماً  
في موضع تنتهك فيه حرمة ، وينتقص فيه من عرضه ، الا خذله الله في  
موطن تنتهك فيه حرمة ، وينتقص فيه من عرضه ، وما من امرئ ينصر  
مسلماً في موضع ينتقص فيه من عرضه ، وينتهك فيه من حرمة ،  
الا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته » .

\* \* \*

إن المروءة تبدو في التسامح والعفو عن المآخذ والخصومات . وصاحب  
المروءة هو الذى يمد يده ، مصالحاً ، أو منقلاً ، أو معيناً مساعداً . . هو الذى  
يوأخى ويؤازر . إن فعلتم ذلك كان لكم عند الله ثواب الفضل والاحسان ، فوق  
توابع طاعتكم وإيمانكم بالله جل جلاله .

## إنكار الذات

عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال : « جاء رجل الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذکر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فأى ذلك فى سبيل الله ؟ قال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » .

١ - يروى بعض شراح الأحاديث ان الرجل الذى جاء إلى رسول الله ﷺ هو لاحق الباعلى . ولاحق الباعلى إذ يعدد فى قوله هذه الدوافع التى تدفع الانسان إلى المشاركة فى القتال : بالرغبة فى تحقيق النفع المادى من حصوله على نصيب فى الغنيمة ، أو تحقيق النفع الأدبى من حديث الناس عنه وذكره ضمن من يذكرون من المجاهدين السالكين ، أو من الرياء وافتاء لوم الناس له - هو إذ يعدد الدوافع بهذه الأنواع الثلاثة لم يرد أن يستقصى كل الأسباب النفسية التى تحمل الإنسان فى واقع الأمر على أن يدخل صفوف المقاتلين أو المجاهدين ، بل قص منها فقط ما يغلب على الإنسان فى العادة إذا ما أقدم على الاشتراك فى مثل هذا العمل . وكأنه أراد أن يذكر الأمثلة الشائعة فى هذه الحال ليعرف فحسب من رسول الله ﷺ على وجه التحديد : نوع الدوافع الذى يكون به الانسان خالصاً لوجه الله ، وفى سبيل الله .

وإجابته ﷺ بقوله : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله ، لا نقف بها أيضاً عند حد القتال من أعمال الإنسان ، بل تشير هذه الإجابة إلى أى عمل من أعمال الإنسان يخلص من الأنانية وينطوى على إنكار الذات فهو عمل فى سبيل الله . لأن أعمال الناس دائرة فى غالبيتها بين أن تكون لتحقيق أهداف خاصة وهى الأهداف الفردية الشخصية التى تحمل عليها الأنانية وحب الذات ، أو لتحقيق مصلحة عامة تتجاوز مصلحة الفرد إلى مصلحة أفراد جماعة معينة أو مصلحة

الناس كافة . وسبيل الله في العمل هي تلك السبيل الموصلة إلى خير الجماعة ، وهي تلك السبيل التي لا تعرج بالإنسان لتبايغه أمانيه وآماله الشخصية . إن حياة الإنسان مرابط بين طرفين متقابلين : أحدها قريب منه والآخر بعيد عنه . أما القريب فهو مطالب الذات ، وأما البعيد عنه فهو وجه الله أو ما اصطاح عليه عرف علماء النفس والاجتماع بخير الإنسانية أو مصلحة الجماعة العامة .

وهذا الحديث النبوي الكريم الذي تضمن سؤال السائل وإجابته عليه الصلاة والسلام يصور هذين الطرفين ، ويحدد ما لله وما لغير الله . وما لله فهو أبقي وما لغير الله فهو زائل حقاً . وكان ذكر القتال في الحديث مثل لعل من الأعمال التي يأتي بها الإنسان والتي تختلف الدوافع النفسية إليها . ومهما اختلفت تلك الدوافع فهي ترجع إلى نوعين لا ثالث لهما : إما المصلحة الذاتية الفردية وإما للمصلحة العامة وهي جهة القربى إلى الله . وبقدر ما ينطوي النوع الأول منهما على حب الذات وسيطرة الفردية ، بقدر ما يتوقف الثاني على إنكار الذات وكتب المرغبات الشخصية .

٢ — وإن جماعة من الجماعات الإنسانية تقوم أعمال الأفراد فيها على الأناية وحب الذات لدى جماعة واهية البناء ضعيفة الترابط ، إذ أنها عندئذ جماعة مشتتة النزعات مفرقة الأهواء والأغراض . وأفرادها لذلك لا يجتمعون على هدف واحد . وإذا لم تجتمع أفراد الجماعة على هدف واحد ففوة الكفاح والسعى الإنساني في هؤلاء الأفراد ستجده حتماً إلى الخصومات الفردية ومحاوله غلبة الأفراد بعضهم على بعض ، بدل أن تنبج هذه القوة الدافعة إلى التعاون والتآخي .

وإن جماعة يسيطر على أفرادها إنكار الذات في الأعمال لدى تلك الجماعة التي أخلصت النية في سعيها في الحياة وتمكن من نفوسها الإيمان وحب المثل العليا . وهي حتماً واصلة إلى هدفها ، وهدفها لا يكون إلا الخير لجميع أفرادها :

« وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ  
كَالَّذِينَ خَلَّفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَآتَيْنَهُمْ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ  
مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أُمَّةً . »

٣ - إن النقاد الذي استشرى في الحياة العصرية ، وإن التصدع والانشقاق  
الذي أصاب بناء الأمة ، وإن الحصرمة والبغضاء التي تمسكت من نفوس الطوائف  
والأفراد - يرجع ذلك كله إلى سيطرة الاتجاه الفردى في الشعب وتغليب الأفراد  
مصالحهم الشخصية على المصلحة العامة . وإن الاستعمار الذي طال أمده لم يجد له  
أرضاً خصبة يبذر فيها بذور الفتنة والشقاق سوى حب الذات الذي طغى على كل  
الاستعدادات الفطرية في الإنسان بين أفراد الأمة .

لم تندم الأمة إلى طوائف وشيع ؟ . لم تنفصل الأحزاب السياسية على الحكم  
فيما مضى ؟ لم تنقطع أواصر الاخاء في الدين واللغة والوطن بين أفراد المجموعة  
الواحدة ؟ لم نتحكم الحصرمات النفسية الفردية وتسيطر الروح النبيلية بين أبناء الشعب  
أواحد ؟ . جواب ذلك في حب الذات والأثرة .

الانقسام والنشيع ، والحصرمات والحزاقات النفسية بين الأفراد ليست هي  
لحسب ناتج حب الذات والأثرة ، بل من نتائج ذلك انحناء الرؤوس والهلمات  
لصاحب الكلمة والسلطان دون أن يكون له حق الطاعة على الناس ، كما أن  
الحرف من ذكر المثل والمبادئ ، فضلا عن العمل لتحقيقها إحدى هذه النتائج .

٤ - إن هذا الأمر لا يصاح إلا بما صلاح به أوله : تضحية في سبيل المبدأ ،  
وإنكار للذات في العمل ، وإخاء في سبيل الله والمصلحة العامة .

صدق رسول الله ﷺ : من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في  
سبيل الله .

## العزة والكرامة

يروى أبو هريرة رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : « ليس الفنى عن كثرة العرض ( اى ناشئاً عن كثرة عروض الدنيا ومتاعها ) ؛ ولكن الفنى غنى النفس » .

ويقول الله جل شأنه : « والله العزّة ؛ ولرسوله ، ولإئمة منى ، ولكن المنافقين لا يعلمون (١) » .

لله العزة والمنعة والقوة ، ولرسوله العزة والمنعة والقوة ، وللمؤمنين صدقاً : العزة والمنعة والقوة .

لله العزة ، لأنه خالق الوجود كله . ومن أجل أنه خالق الوجود كله كانت رسالته للبشر كافة ، لا تميز فيها لفريق دون فريق ، ولا اشعب دون شعب هي تمثل مصلحة الناس جميعاً ، كما تمثل غناه عنهم جميعاً .

ولرسوله العزة ، لأنه قام بتبليغ هذه الرسالة ، وامثل تعاليمها ، وابتعد فيما بلغ وفيما امتثل ، عن الهوى والحزبية ، وعن القرابة والمحسوبية ، فكان عمله صورة لقوله ، ولم ينطق في قوله عن هوى ، إن هو إلا وحى يوحى .

### اول وسائل العزة : التغلب على الهوى

وللمؤمنين حقاً العزة ، لأنهم أولئك الذين اقتدوا في سلوكهم وفي طاعتهم لرسالة الله ، برسوله المصطفى ﷺ . لم يبعدهم هوى عن الطريق المستقيم ، ولم تتحكم فيهم النفس الأمارة بالسوء . واصبحوا بهذا أعماء ، وأصحاب منعة وقوة . استمدوا عزتهم من إيمانهم — الذى لا تخلخل فيه — بالله وبرسالته ، وانتزعوا قوتهم ومنعتهم من التغاب على هواهم وشهواتهم ؛ وحزبية الإنسان ومحسوبيته .

وتقلب النفس على هواها إذن عزة ، وترفع النفس عن دنائها قوة . وسيطرة النفس على حاجاتها غنى وثروة . وليس الغنى إذن هو كثرة عروض الحياة الدنيا من مال وجاه وولد ، وإنما الغنى غنى النفس ، وفي غناها عزتها وقوتها .

وبهذا الوضع يصبح المؤمن عزيزاً . لأنه قد تمسك فعلاً من أن يكون سيد نفسه ، ولم تستطع شهوات الإنسان العادية ، ولم يستطع هواه الجامح أن يتحكم فيه ، فيذله ويستعبده .

العزة معناها إذن انتصار الباقي على الفاني ، انتصار الخير على المولى والشهوة ، انتصار ما لله على النفس . والمؤمن العزيز هو المؤمن القوي ، وهو « خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » .

إن المؤمن العزيز صاحب كرامة أيضاً ، لأنه لا يتبدل ، ولا يستذل . صاحب كرامة لأنه مترفع عن الدنيا ، لا يسأل غيره قضاء حاجة لنفسه من حوائج الدنيا . وهو خير من غيره عند الله والناس جميعاً . عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لأن يفدو احدكم فيحطب على ظهره فيتصدق به ، ويستغنى به عن الناس ، خير من أن يسأل رجلاً اعطاه أو منعه ذلك ، فان اليد العليا خير من اليد السفلى » .

تكريم الله للإنسان

ويقول الله تعالى جل شأنه « ولتدكر منا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وقضناهم على كثير مما خلقنا تفضيلاً<sup>(١)</sup> » . فالإنسان في طبيعته ونشأته مكرم . فاذا استذل وأهين كان في ذلك من فعله ، وكان فعله عندئذ اعوجاجاً لاقوم فيه . لايهان ولايستذل إلا من ضل السعي في الحياة . ومن ضل سعيه في الحياة يكون قد آثر الدنيا وشهوات النفس على الأعمال الصالحة الباقية . لايهان ولايستذل إلا إذا نسى الله فأنساه هدايته . فاذا

(١) الاسراء : ٧٠ .

كان في إثارة للدنيا يحسب أنه يحسن صنعا : فقد انحرف انحرافا بعيدا ، وسوف يلقى من الهوان — على الأقل من نفسه أمام غيره — ما يبغده عن أن يكون إنسانا ، وإن بقي في صورة آدمي . لأنه لا يرى عندئذ إلا الدنيا . ولا يسعى إلا لتحصيل أغراضها ومتعها . ومن وصل أمره إلى هذه الحال أصبح كمن يأكل ولا يشبع . يروى مسلة عن معاوية رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « انما انا خازن فمن اعطيته عن طيب نفس ، بارك الله له فيه ، ومن اعطيته عن مسالة وشره كان كالذى يأكل ولا يشبع » .

ومن الأفراد أفراد أعزاء كرماء وهم المؤمنون حقا . ومن الأفراد أفراد ضغفاء أذلاء وهم الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم . والجماعة العزيزة الكريمة هي التي يكون أفرادها أعزاء أقوياء كرماء . والجماعة الضعيفة هي التي يكون أفرادها ضغفاء أذلاء .

#### من معانى العزة

والقرآن لا يريد منكم أيها المسلمون . . كي تصبحوا أعزاء كرماء — أن تتركوا الدنيا ، وما لها ، وجاها ، وزينتها ، وأن تحرموا أنفسكم من متعها . وإنما يريد منكم أن تتعففوا عن السؤال : يتعفف صغار النفوس من الموظفين عن الوساطة ، ويتعفف صغار النفوس من أصحاب الأعمال عن تقديم الرشوة ، ويتعفف صغار النفوس من التلاميذ والطلاب عن الغش في الامتحان ، ويتعفف صغار النفوس من التجار عن التدليس والخداع ، ويتعفف صغار النفوس من العمال عن الاستهتار بالواجبات يريد منكم أن تكون كفايتكم ، وإيمانكم بأنفسكم ومجتمعكم هي وسائل تعففكم عن الدنيا . يريد منكم ألا تطغى عليكم الدنيا فتأكلوا أموال اليتامى . « وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تتبدلوا الحسب بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ؛ إنه كان حوبا كبيرا » (١) .

يريد منكم ما يريد الله في قوله « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ، إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ، وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا <sup>(١)</sup> » .

وايست العزة والكرامة استماعاً لعظة ، وحساساً مؤقتاً لما يقال . إنما هي عادة وتنشئة ، بعد التبصير بهداية الله .

### التربية والمسؤولية عنها

والبيت مسؤول عن دفع الأولاد للسؤال والإلحاح فيه .. مسؤول عن وضع الأولاد في الحياة وضعاً يدفعهم إلى ترجيح نافع الماديات ، عوضاً عن الترفع عنها وتكوين الشعور بالشخصية عندهم .

لو استقامت التربية الأولى ، ولم يُهمل الآباء والأمهات في الإشراف على أولادهم لوجدوا فيهم أمثلة للتهذيب الكريم ، والعزة والشمو والاباء ، ولأفادوا منهم في الحياة متعة للروح والنفس ؛ وزينة وجاهاً في هذه الدنيا .

والمدرسة مسؤولة لأنها لم تجعل بعد من السلوك الاخلاقي بين التلاميذ موضوع مسابقة واختبار ، وبقيت للمعرفة دون التهذيب .

والمجتمع مسؤول لبخس تقديره الأعزاء والكرماء ، واحتضانه للمناقضين الأدنياء .

والفرق بين كريم النفس وعزيزها من جانب ، وبين ذنى النفس وضعيفها من جانب آخر - أن الأول لا يعيش لحساب شهوته ، وأن الثانى لا يعيش لإلحسابها .. الفرق أن الأول يتمتع بمعنى السيادة .. وأن الثانى يتلذذ بتفاق العبيد وحرارة الأذلاء .

قد تصيب الدنيا ذنى النفوس وضعيفها . قبل أن تصيب كريم النفس وعزيزها . ذلك لأن الدنيا تنافق . ولكن العزة لله جميعاً لا يهبها إلا لعباده المؤمنين الذين لا تستعبدهم شهواتهم : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلَهُ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ، إِلَيْهِ يَصْنَعُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ . وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ <sup>(٢)</sup> » . .

## فضيلة الصبر وأثرها في حياة الفرد والجماعة

عن أبي سعيد رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ما اعطى احد عطاء خيرا وأوسع من الصبر » .

١ - الإنسان في هذه الحياة لابد أن يتخذ موقفاً معيناً : مرة من نفسه ومرة ثانية من الآخرين . فبحكم أن له هوى وشهوة وأن له مع ذلك عقلاً يبطه التكليف الإلهي ووجب عليه من أجله أن يطبع ما أمره به الله ويتجنب ما نهى عنه - كان موقفه من شهوته ومن عقله أن يروض نفسه على عدم الانسياق فيما تدفعه إليه غرائزه وشهوته ، وعلى الوقوف بجانب العقل والرسالة الإلهية . وهو لا ينجح في هذا الموقف إلا إذا تحمل ألم الحرمان وفوت على نفسه متع النفس الشهوية ورغبات غرائزه . وترويض النفس على تحمل الألم والحرمان من المتع هو ما يعرف بالصبر والجلد . وفي هذا الموقف إذا لم يستمن الإنسان بالصبر لم يستطع أن يقي نفسه من الاسترسال في شهوته ، وجاب على نفسه بعد ذلك غضب الله في مخالفته ما أمر به ونهى عنه .

وموقف آخر يتحتم على الإنسان في حياته أن يقفه من الآخرين ، وهو موقف مردد بين أن يعيش في الوجود لنفسه خاصة وبين أن يكون لنفسه والآخرين معه في جماعته . ولكن حسب ما جاءت به الرسالة الإلهية ووفق طبيعة نفسه يتحتم على الإنسان أن يعيش لنفسه وبقية ، لاعلى نحو من المشاركة فقط . بل على نحو يصير فيه الحال بينه وبين غيره إلى حال الأخوة والساندة . ولذا لا يستطيع أن يؤدي ما يجب عليه هنا اتباعاً لوصايا الدين وتشاكياً مع طبيعة الحياة الإنسانية نفسها إلا إذا تحمل في ذلك المكافأة . وهي لا تمرض له إلا إذا رعى مصالح غيره . لأن في رعايته لهذه المصالح حرماناً لنفسه من بعض المتع والرغبات . والسبيل إلى ذلك

هو الصبر وترويض النفس عليه .

٢ - والجماعة الإنسانية نفسها لها هذان الموقفان : موقف داخلي يقفه الأفراد مجتمعين من أمتهم ، وموقف خارجي تقفه الأمة ككتلة واحدة من أمة أو أمم أخرى .

قد تحمل بالأمة مثلاً أزمة اقتصادية بسبب نقص في الأموال أو الثمرات تفرض عليها لوناً معيناً من العيش وهو التنازل عن شيء من حياة المترفين وتمويد الأفراد على ضرب من التقشف والحرمان مما تشبهه الأفسس - وهي لانتشهي غالباً ما فيه خيرها وصلاحتها - وهنا يدور الحال بين أمرين لا ثالث لهما : إما أن يلتزم أفراد الأمة : جادة التقشف بحرمان أنفسهم قليلاً مما أنفوا وتنجو بذلك الأمة وتعود من جديد إلى حياة أوسع رفاهية وأعلى مستوى بمدحين ، أو تشتد الأزمة وتأخذ سبيلها في تفريق الجماعة وإضمار مستواها في العيش والحياة حتى لدى أولئك الذين يظنون أنهم بآمن من آثارها بسبب سعة في المال أو اعتماد على مصادر أخرى من مصادر العيش .

وأيضاً قد تضطر الأمة إلى أن تسلك مسلكاً خاصاً تجاه الأحداث التي توجه إليها من بعض الأمم الأخرى . لقد تضغط بعض الأمم الكبرى على أمة صغيرة لتقال منها ميزات سياسية أو اقتصادية وتحاول في سبيل الحصول على ذلك إيجاد أزمات من أنواع مختلفة داخل هذه الأمة الصغيرة . وهذه الأمة الصغيرة إزاء ذلك إما أن تجيب الأمة الكبرى لما تطلب ويضع بذلك استقلالها ويسيطر على اقتصادياتها غير أبنائها ، أو تتحدى هذه الأزمات بوقوفها متماسكة في وجه ما تطلب الدولة الكبرى ، والسلوك في عيشتها مسلك التحملين الأذى والمكاره ، مسلك الصابرين المتجلدين . ومهما كان شأن هذه الأزمات عندئذ فإن حدثها وقوتها لا يتماسك مطلقاً أمام صلابة الأمة وإرادتها .

والإنسان إذا عرف أن حياته ليست طريقاً واحداً ، وأن طريقه في الحياة ليس معبداً على الصوام ، بل فيه استقامة وانحناءات وفيه ميسر سهل وعسير شاق ، عرف أن الشاق في طريقه لا يجتازه إلا بالصبر وتحمل الأذى في اجتيازه .

والأمة إذا عرفت أنها لا تعيش وحدها ، وإنما تعيش مع غيرها من الأمم الأرض ، وقد يكون مذاق هذا الاحتكاك مرأليها - عرفت أنه لكي تنجح لابد لها من الصبر وتحمل مرارة الاحتكاك ونفائجه .

والله سبحانه وتعالى قد عرض في بعض آيات القرآن تكريم لبعض الأحداث التي تنزل بالجماعة والتي من شأنها أن تززع كيان الجماعة لولا التغلب عليها بالتحمل والصبر . ولذا بشر الصابرين عليها وأطلق في بشارته إيماء إلى أن جزاء صبرهم كما يكون في الآخرة سيتحقق في الدنيا :

يقول جل شأنه : « وَابْتَلُونَكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الْبُلُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالتَّمَرَاتِ وَبَشَرِ الصَّابِرِينَ (١) » .

## الصبر عند الشدة

« عن أبي يحيى صهيب بن سنان رضى الله عنه : قال : قال رسول الله ﷺ « عجباً لأمر المؤمن ! إن أمره كله له خير . وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » .

١ - إن الإنسان لو ترك وطبيعته ، يسير في طريقها دون أن يلزم نفسه بتوجيه معين - لسار حتماً إلى غاية لا يمتزج عنها أبداً ، وهى أن يكون أنانياً ، يحب ذاته . ويعمل لنفسه ، ويتصور الوجود كله وفقاً عليه ، والحياة خاصة به . لا تمد أمانيه وأطماعه ، ولا نهاية لرغباته . إن حصل على شيء منها أمسك به عن غيره ، وإن قدر وفاته الحصول عليه ، أو قدر وخرج من يده هذا الشيء لأمر ما : ثار وغضب وقلق واضطرب .

ذاك لأنه فى رأيه وتصوره : مركز هذه الحياة يجب أن يدور كل ما فيها حول نفسه ، وأن يكون له وحده دون غيره . ونتيجة هذا التصوير أن لا يعترف بمن عداه فى الوجود ، وأن لا يقبل له حقاً فى العيش والحياة .

ثم أثر ذلك على الشخص الأنانى الذى استسلم لميوله ونزواته ، وانقاد لطبيعته ، بدل أن يكون مهممناً عليها وقائداً لها - أثر ذلك هو الخوف الأبدى من أن يفقد شيء مما فى يده ، والحزن الشديد على ما فاتته من أعراض الدنيا ، والخصومة العفيفة الدائمة بينه وبين غيره على امتلاك متع هذه الحياة . وليس مدعاة لقلق الإنسان فى عيشته من أن تسيطر عليه هذه العوامل الثلاثة : الخوف - والحزن - والنزاع .

والجماعة التى تتكون من أفراد لهم هذا الاتجاه فى الحياة - هى فى واقع الأمر

جماعة غير قائمة . لأن الأساس في وجود جماعة ما : قيام روح المشاركة بين الأفراد . وهذه الروح لا توجد بينهم إلا حيث تضمف الأناية في نفوسهم ، ولا تضمف الأناية في نفوسهم إلا إذا أخذوا أنفسهم بتوجيه خاص يقالب نزعاتهم وميولهم ، ويتحكم في تصرفاتهم وأفعالهم ، ويقودهم إلى خير أنفسهم وجماعتهم وأممهم .

٢ — والتوجيه السليم للبشرية ، المنزه عن النقص ، الموصل حتماً إلى الخير — هو توجيه الرسالة الإلهية . وأساس هذا التوجيه الإيمان بالله .

والإيمان بالله ليس كلمة ينطق بها المؤمن ، إنما هو التزام خاص أمام الله سبحانه وتعالى ، وعهد يعطيه الإنسان على نفسه لله جل وعلا : ومجمل هذا العهد أن لا يكون أنانياً ، وأن يعيش لنفسه وآخره ، وأن يقر بأن له وعليه واجبات : له واجبات وحقوق بقدر ما يبذل من نفسه في سبيل غيره من معاشريه ، وفي سبيل جماعته العامة . وعليه واجبات يقدر ما يعدها بنفسه اعداداً يجعلها تبذل عن رضا ، وتعرف في وضوح لها ليست وحدها في هذه الحياة ، وأن مشاركيها لهم قبلها حقوق يتعين أدائها . والمؤمنون بالله إذن هم أولئك الذين لم يذعنوا النداء الطبيعة الإنسانية الفجة . فلم يمشوا لأنفسهم وحدهم ولم يسعوا في الحياة لتحقيق مآربهم الذاتية الخاصة .

والمؤمن بالله عندئذ إنسان أمن على نفسه : الخوف ، وحال بينها وبين المم والحزن ، وجنبها الخصومة والنزاع والبغضاء . هو الطامئن في سعيه لأنه يقصد وجه الله فيما يسعى ، وهو الناجح في هذه الدار لأنه استطاع أن يتغلب على نزوات نفسه وشهواته ، وهو الناجح في الدار الآخرة ، لأن الله لا يخلف وعده .

وقد وضع القرآن الكريم هذين الحالين للإنسان : حاله إذا اتقاد لطبيعته الأولى ، وحاله الثانية إذا أخذ نفسه بتوجيه الله جل جلاله : يقول سبحانه وتعالى : « إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ،

إِلَّا الْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ . وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ .  
لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ، وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ . وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ  
رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (١) .

وعبر الله سبحانه عن المؤمنين ، وهم من يفترون عن أولئك الذين يستسلمون  
لطبائعهم ، بالمصلين الذين هم على صلاتهم دأيمون والذين يرون أن في أموالهم حقاً  
معلوماً تغيرهم من المحرومين والذين يصدقون بيوم الآخرة - عبر عن إيمانهم بهذه  
الصفات إشارة إلى أن هذه الصفات هي التي تعبر حقاً عن إيمان المؤمن ، وهي  
التي تفرق بين المؤمن في السلوك ، وبين ذلك لذي بقي مرتبطاً في تصرفاته بما  
تمليه عليه طبيعته وغلزته وحدها .

٣ - ورسول الله ﷺ فيما يحدثنا به الآن صهيب بن سنان رضى الله عنه -  
يريد أن يصور في إجمال حال المؤمن . وهي حال خير كلها ، سواء في سرائه أو  
ضرائه : لأنه إن نال ما يسره في حياته شكر الله على نعمته ، وإن أصابه ما يضرر  
ويتوجع به صبر على ما أصابه . وشكر الله على نعمته خير ، وصبر الإنسان على  
ما يبئس به في هذه الدنيا خير وأى خير : « وَاتَّبِعُونِي حَتَّى تَنْبَلُونَكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ  
وَالصَّابِرِينَ (٢) » .

والخير في حال الشكر على النعمة آت من أن الشاكر لم تستهوه النعمة ولم تحل  
بينه وبين الرجوع إلى الله . وذلك شأن المؤمن يفتزق عن الإنسان المسترسل في  
سيره وفق طبيعته الأولى ، وهو ذلك الذي يطغى أن رآه استغنى .

والخير في حال الصبر على البأساء والضراء آت من أن الصبر لا يحققه إلا مؤمن  
ولا يلتزمه عند المحنة إلا من اعترف بالله . إذ الطبيعة الانسانية كما هي : توحى  
بالملع والجزع في الشدائد : « إن الإنسان خلق هلو عا ، إذا مسه الشر جزوعاً » (٣) .

إن الخير والإيمان متلازمان.. والشكر على النعمة والصبر في المحنة طرقا للإيمان بالله تعالى .

فإن كان مؤمناً فليكن شاكراً صابراً، ومن يرد الخير فليكن مؤمناً، ومن يسع إلى السعادة والطمانية فليخالف هواه، وينزل عن بعض رغباته، وما تدعوه إليه نفسه وأنانيته .

والجماعة لا تكون جماعة إلا إذا آمن أفرادها بالله . وآية إيمانهم بالله اعتراف بعضهم قبل بعض بالمشاركة في الحياة . وأمانة اعترافهم بالمشاركة في الحياة : التضامن وتحمل المحن والشدائد في مسيل جماعتهم . وربح ذلك أخيراً عائداً إليهم كأفراد ، إذ ليست الجماعة إلا أفراداً مشتركين في هدف وغاية .

إن حيوية الأمة تقاس بصبرها وجلدها عند الأزمات والمحن ، وإن حيوية الأفراد تقاس بالشعور بوطنهم وجماعتهم . وأخيراً الإيمان بالله : في الشكر عند المسرة ، والصبر عند المحنة . والمسرة والمحنة كما يكونان للأفراد يكونان للجماعة .

## الصراحة والصدق

١ - عن أبي هريرة رضى الله عنه - في رواية أبي داود والحاكم - أن

النبي ﷺ قال : « من افتنى بغير علم كان اثمه على من افتنه ، ومن اثنان على اخيه بامر يعلم ان الرشد في غيره فقد خانه » .

٢ - وروى عن عبد الله رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« عليكم بالصدق فان الصدق يهدى الى البر ، وان البر يهدى الى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . واياكم والكذب فان الكذب يهدى الى الفجور ، وان الفجور يهدى الى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتبه عند الله كذاباً » .

\* \* \*

في الحديث الأول يعتبر الرسول عليه الصلاة والسلام أن من الخيانة عدم الصراحة في المشورة ، وعدم الإخلاص في النصيحة . فالذى يرشد غيره ويعلم أن الهداية والرشد في غير ما أرشد به فقد خدعه وأضله . وعندما يخدعه ويضله قد آذاه . وهو بذلك لا يجب لغيره ما يجب لنفسه . وهو لهذا أيضاً خان العهد الذى بينه وبين كل مسلم آخر ، وهو أن يعمل بما يجب للمسلم على المسلم . يروى أبو هريرة رضى الله عنه ان النبي ﷺ قال : حق المسلم على المسلم ست ، قيل ما هن يا رسول الله قال : « إذا لقيته فسلم عليه ، وإذا دعاك فأجبه ، وإذا استنصحك فانصح له ، وإذا عطس فحمد الله فشمته ، وإذا مرض فدهه ، وإذا مات فاتبعه » . فجعل من حق المسلم على المسلم النصيح لمن يطلب النصيحة . ولا يكون الأمر نصيحاً إلا إذا صدر عن إخلاص واعتقاد بأن فيه الهداية والرشد . فالصراحة صفة مطلوبة ، وفضيلة يتخلق بها .

وفي الحديث الثانى حث الرسول الكريم على الصدق وأوضح أنه سبيل البر

والخير والإحسان في الحياة الدنيا ، سواء أ كان للإنسان الصادق أو لمن يتعامل معه ويتصل به ، ثم في النهاية هو الطريق الموصل إلى الجنة وثواب الله في الآخرة . كما حذر من الكذب لانه من المهلكات : فهو موصل إلى الفجور والموبقة والصرفات المرذولة في هذه الحياة ، ثم هو بعد ذلك سبيل إلى النار والبعد عن رضا الله وثوابه .

### سبيل الصراحة الشجاعة في إبداء الرأي :

والصراحة والصدق صفتان تعتمدان على الشجاعة . ولا يتسلف بهما إلا شجاع . والصراحة تعتمد على الشجاعة في إبداء الرأي والنصح ، والصدق يعتمد عليها في التعبير عن الحق والواقع . ولذا طلب الإسلام من الإنسان أن يكون في حياته صريحاً وصادقاً ، يطلب منه في واقع الأمر أن يكون شجاعاً في إبداء رأيه ونصحه ، وفي التعبير عما يعتقد أنه حق وواقع .

وبهذا ينتفي الخداع في قوله : لأن الخداع إنما يكون عندما يكتم النصح أو يدلس فيه ، وعندما يلبس في التعبير عن الحق ويزور في حقيقة الواقع .

الصدق والصراحة كلتاهما إذن يتمر عدم خداع الغير ، وكتلتاهما يبعد الزيف في العلاقة بين الإنسان والإنسان ، وفي توجيه الإنسان للإنسان .

كلتاها ركن أساسي في تكوين شخصية الإنسان . لأنه لا يتصف بهما إنسان إلا بعد أن يمر بامتحان دقيق في إرادته وإيمانه بالله ثم بنفسه وبالقيم ، وإلا بعد أن ينتصر على التردد والتأرجح بين دافع الإعلان عن الرأي لقتضى الحق في ذاته ، وبين كتمان خشية إغصاب الغير ، أو خشية أن تفوت مصالحة شخصية له عند هذا الغير .

الصراحة والصدق كلتاهما عنوان على أن صاحبهما منتج في الحياة ؛ ويعتمد عليه في الأزمات ، ويشق به ويركن إليه . إن صفة الصراحة أكثر من الإخلاص ،

هي جرأة وإخلاص معاً ، وإن صفة الصدق أكثر من التعبير عن الواقع ، هي جرأة ، واحتضان للحق ، واتباع له ، وتعبير عنه .

ولا تكون هناك صراحة ، ولا يكون هناك صدق إلا لمن له شخصية . فهما يسهمان في تكوين شخصية الإنسان ، وفي الوقت نفسه يعبران عن هذه الشخصية . إن الصدق يهدي إلى البر ، والبر هو الإحسان والحق . ذاك لأن الصادق قد أبدع عنصر الضعف فيه ، وهو الجبن والخور والنفاق . والصراحة في إبداء الرأي والمشورة صفة المسلم ، لأن الصريح قد سام المسلمون من لسانه فيما يعبر ، ومن نيته فيما يفسر ، فهو خالص النية صريح القول .

#### الخداع والجبن امارة النفاق :

وعلى الضد من صفتي الصراحة والصدق صفة النفاق . فالنفاق يبعد صاحبه عن أن يسكون ذا شخصية ، وهو امارة على ضعفه . المنافق يعرف الحق ويكتمه . وإذا سئل عنه أجاب بشيء آخر يغيّر ما يعرفه ، إن كان في ذلك ما يحقق مصلحة خاصة له ، أو يدفع مضرة عنه .

المنافق خطر على المجتمع ، ومع ذلك لا شخصية له . وضعفه هو سبب خطورته في المجتمع الذي يعيش فيه . لأنه يستمد من هذا الضعف طواعيته لكل رأى ، وكل جهة ، وكل حال ، وكل عهد . عن ابن عمر رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال في تصوير المنافق : « مثل المنافق كمثل الشاة العائرة (١) بين الفئمين » .

وفي واقع الأمر ، المنافق لا يعتقد بما يعلن طاعته له ويدّعي إليه ، فيما يتحدث أو فيما يتصرف . خطورته في أن غيره يأمن بجانبه في وقت هو غير مأمون الجانب فيه ، يعتمد عليه في وقت لا يعتمد عليه فيه ، يختفي عند الأزمات ، ويكثر تردده وتنشط حركاته في الرخاء .

(١) العائرة : المترددة . تعبر : تردد الى هذه مرة وإلى هذه مرة .

خطورة المنافق ليست في أن ذاته خطيرة ، أو لأن ذاته قوية ، بل لأن غيره يتخضع فيه . ولخطورة المنافق في خداع غيره والتضليل به يقول الله تعالى في شأن المنافقين : « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ، وَانْ تَجِدْ لَهُمْ نَصِيرًا <sup>(١)</sup> » .

المنافق يلبس ثوب الصديق وهو عدو ، وثوب المشير الناصح ، وهو خادع مفرر ، وثوب المضحي في سبيل الغير وهو نفعي أناني ينزع منفعته الخاصة من حطام من تظاهر له بالصدق ، والإخلاص في المشورة ، والتضحية من أجله . « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا أؤتمن خان » .

\* \* \*

الصراحة والصدق في الإنسان كفيلا بنفي النفاق عنه . لأنه في صراحته قد أدى أمانته ولم يخنها ، وفي صدقه لم يكذب فيما تحدث به .  
الصراحة والصدق في الإنسان تجعله مأمون الجانب ، قويا يركن إليه ، لأنه لا يعرف الخداع ، ولا الزيف ، ولا التدايس .

ولسكن كيف يكون الإنسان صريحا صادقا ؟ يكون صريحا صادقا بأن يعتقد أن نجاة الإنسان وسعادته في الصراحة والصدق . وبأن يدرّب نفسه على الصراحة فيما يؤخذ رأيه فيه كما لو كان مشيرا لنفسه ، ويعود نفسه الصدق فيما يقول ويتحدث ولو أغضب غيره أو نفسه ، ثم أخيرا بأن يكون في صراحته وصدقه قدوة واضحة لأولاده وأهله ، وإلا لاقى من ألم النفس وعنتها - بسبب كذب الأولاد والأهل ، وكتائبهم ما يعرفونه وبرونه - ما يجعله يشقى وهو حي ، حق انه ليتنى الموت كي يخلص من شقوته والله .